فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

أنشئ ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠هـ برج الميزان سنة ١٣١١هـ ش ٣ اكتوبر سنة ١٩٣١

فاتحة المجلد الثاني والثلاثين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وأفضل صلاته وأزكى تسليمه على رسوله خاتم النبيين محمد المصطفى ، وآله وأصحابه الاصفياء الحنفاء ، وعلى كل من اتبع هداهم واقتفى

أما بعد فاني كاشفت قراء المنار بسبب صدور الجزء الاخير من المجلد الحادي والثلاثين في آخر شهر صفر ، واستصرختهم لاداء حقوقه المطولة منهم ، منقوصا متهاجسها فنصحتها ، لئلا تضطرني العسرة والغرامة الى ترك اصدار المنار في هذا العام ، فلم يرسل أحد منهم درهما ولا دينارا ، ولم يرجع الينا وعداً ولا اعتذاراً ، ولا عجب فان غيرة جميع العالم الاسلامي على مساعدة الاصلاح الديني لا تزن غيرة يهودي ولا نصراني واحد . واني قد حبست نفسي هذه الثلاثة الاشهر على إتمام تاريخ الاستاذ الامام لم أكتب فيها غيره فانا أجعل فاتحة تصديره ومقدمته فاتحة المجلد الثاني والثلاثين ، وعسى أن أجد من ثمنه ما أنفق منه على إصدار المنار ، وحسب الماطلين الهاضمين لحقه الخزي والعار ، وما بعده من عذاب النار . ولا نقبل بعد صدور هذا الجزء حقنا الا تاما لا نعفو منه شيئا ، ولا نشكو هاضميه الا الى الله عز وجل . وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا

تصدير التاريخ

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام

(وشيخنا الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٢٧:٥) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (٧:١٧٠) وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٣:١٤٠)

جرت سنة الله تعالى في افراد البشر أن يؤتيهم قوى المشاعر الحسية والمدارك العقلية بالتدريج حتى يبلغ احدهم أشده ، ويستكمل رشده ، ويستقل بنفسه بالعلم والعمل والتجارب ، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله وزمانه ، على مثال سنة التدريج في الافراد ، إلى أن استعد النوع البشري في جملته ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لايحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها ، في كل زمان ومكان بحسبهما ، فوهبه هداية القرآن ، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام

ولما كان من طباع البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ، ويتأولوا كتبه بأهوائهم ، أتم عليهم بما يحيي هداية النبوة فيهم ، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين ، وأئمة مصلحين ، يرثون الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض ، ويكونون حجج الله على الخلق ، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين ، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للانام كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامد، فقست قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو امية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الامة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على مايتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شرحه من عقائد الاسلام ونقده الفلسفة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما محص من الآراء من فقه النصوص الشرعية . وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلل الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً منحصراً في قطر او شعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين والامويين، ومنهم

من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسي وملكه

ثم انسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاوطان، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفروع، فتعادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فثلوا أكثر عروشهم، وانتزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ٨ : ٥٣) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كمحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كمصطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

حال البشر الاخير وما يقتضيه من التجديد

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضعافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والحمر الموكفة والخيل المسومة، فيذلون بالجماعات الذليلة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي نزحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مراكب النقل والتسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بمثله أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكل على الكرامات ويغتر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومغترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطالع ثناياه، ويجتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعلماً آلياً ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة او ديوان من دواوين حكومتها.

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد وفن الحديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلة النظام، مستعبدة للمستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصعتها»(١) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل: يارسول الله وما الوهن؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »(٢) فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى ويحشرهم من قبورهم

ألا ان الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدركات من الوهن، وبعثها الى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة يجب ان يكون ذا روح علوية، أوتيت حظا عظيما من وراثة النبوة في كمال الايمان، وصحة الالهام، وعلو الهمة، وقوة الارادة، وصدق العزيمة، واخلاص النية، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتقار الزينة الخادعة، والزهد في الجاه الباطل وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي، وسنن الله في الاجتماع، وفصل الخطاب في الاقناع، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، وأن يكون ما تقدمه من سائر العلوم مدداً له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي، الذي تمثل للافغان في ناسوت بشري جلس في دروس العلم لحذق العلوم والفنون القديمة نقليها وعقليها في بضع سنين، وألمّ بالهند لتلقي مبادي العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في نزها سنتين، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في سفر مزهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية، لا كتناه أخلاقها وعقائدها الدينية، واختبار احوالها الاجتماعية والسياسية

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، وموبوءة بالدسائس البريطانية، فكاد بتدبيره يخلص الامر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي بوأه مكان الوزير الاول عنده، لولا ماعارض ذلك من الدسائس الانكليزية، التي تمدها القناطير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تتداعى أي يدعو بعضها بعضا . والاكلة بفتحتين جمع آكل (٢) رواه ابو داود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطر بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته ، الى حيث يمكنه الاصلاح من أوطان أمته ، فمر بالهند فبالغت حكومتها الانكليزية بالحفاوة في ضيافته ، مع احاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه ، ومنع علمائها من الاتصال به ، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال ، والجرأة على كسر مقاطر الاستعباد ، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتلقين الافكار، لمن يلقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد ، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالعروة الوثقى التي كادت تضرم نيران الثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده ، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري : ياولد انك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند ، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك أنه حمله تقريرا منه الى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها الى الغراندوق فلان ، واعلم انك إما أن تقتل ، وإما أن تفوز وتسلم ، فأوصلها فقام الغراندوق لها وقعد ، ثم أعاده بها الى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها اليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، واتقى أهوالا كادت تذهب بحياته

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية ، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة ، كما ارشد المسلمين منهم إلى الاصلاح الديني، والجمع بينه وبين العلم العصري وكان من أثر هذا ماشرحه هذا الكتاب

ذهب إلى إيران ، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فما زال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود ، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر خان ، وما زالت تنتقل في أطوار التجديد والاصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية ، فأنشأ يرشد السلطان لوسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية ، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة ، حتى انه اقنع كثيرا من علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجعلها مناط الوحدة

الجامعة للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة ، فأعرض عنها. وكان السيد مع ذلك يبث هنالك أفكار الاصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى أن قضى نحبه ، ولقي ربه رحمه الله وقدس سره

الاستاذ الامام

أرأيتك هذا المصلح العظيم ، والمجدد الحكيم ، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له ، ومتمما لاصلاحه بما يرجى به دوامه ، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بطلبه القلوب ، على كثرة من المصطفين بصبغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب امامة الاصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعليم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ، وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي وأعدته لوراثة هداية النبوة ، فكان زيتا في زجاجة نفسه صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي . وكيف كان أول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لهما قصور كل ما قالوه وجاء من عنده بخير منه ، وكيف أعجبا كلاهما بما قاله ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استعداده ، وكان أرقى علماء الازهر عقلا وعلما وزهدا

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بان كل ما أصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير [1] دون ما تسمو اليه نفسه ،

(١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان أصلب الازهريين جمودا كما كان الشيخ الطويل اشدهم استقلالا

ويتطلع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، وكان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشرفة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في اصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ فاتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه ، وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية تربية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، اذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة مستبدة بغيرها (راجع ص ٩٧٤)

تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ : « والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس[1] السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والقديسين ، مارثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، مارثيته بالنثر لانني لست الآن بناثر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر » اه بنصه تقريبا[2]

هذه الوراثة هي التي أخرج [illegible] بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود ازهريته إلى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والاصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه فتن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمائم الجامدين ، من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعا في كسر بيته ، راضياً بخموله وراحة نفسه ، وان في الصلاة لراحة ، وان في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابهما قاصر على صاحبهما ، وثواب الجهاد متعد لكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له أستاذه السيد جمال الدين وهو مجاور يائس الزعبوط : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد اني لاجل أمرك قد عفوت عن شاه ايران ، ويقول له السلطان : يحق يخاف منك الشاه خوفا عظيما (٣)

(١) هما اخواه اللذان يشتغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب وبقي المحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والسلطان على الحكومة المصرية من أعلاها إلى أدناها ، فيأمرها وينهاها منتقداً أعمالها ، مرشداً عمالها ، يخطيء لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم ، وينقد أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم ، بل أزعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما اشكاه ، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الاصلاح ، وأقنعه بإنشاء المجلس الاعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال ، فأنشأه برأيه . وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الاكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه وأعلن فيه عفوه عمن وشوا به وأساؤا اليه على ما كان من احسانه اليهم ، وجزمه بما أعدت له العناية من المجد ، واعداً بأن سيفعل المعروف ، ويغيث الملهوف ... وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو رأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً مرؤساً فيه ، كمجلس إدارة الازهر ، ومجلس الاوقاف الاعلى ، ومجلس شورى القوانين ، وتجد اثبات ذلك في بيان أعماله فيها من هذا الكتاب ، سافرة الوجه ليس دونها نقاب

بل بهذا الروح العلوي كان أميره يكبره ويهابه ، ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون ، وانما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون ، متوكئا على عصا الحق ، داعياً إلى الاصلاح والخير ، ناهياً عن الاستبداد والبغي ، كقوله له في مجلس تشريف القابلة الحافل بالعلماء : ان مجلس إدارة الازهر لايعرف لسموكم أمراً عليه ، إلا بهذا القانون الذي بين يديه ، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم من لايثق به المجلس لمخالفته قانونكم

***

تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد . فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الأعلى الذي أذكى سراجه الوهاج ، واتحدا في عمل من الاعمال ؟ ذلك ما كان من إصدارهما جريدة العروة الوثقى ، التي لا نعرف في تاريخنا كلاما بشريا أبلغ منها لانها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ،

ومواضع الاقناع من العقل ، وتجرئة الضعفاء على الثورة على الاقوياء ، والجهاد لتحرير أمتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب العظمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع نهمتك السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إطناب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)

وانه ليبسط لك بالروايات الصحيحة، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبدين القاهرين ، وجمود الفقهاء المقلدين ، ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا

فاقرأه أيها الغيور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني مقالات الامام الاجتماعية والادبية ، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والادبية للعلماء والادباء . ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني ، وتأمل إجماع كتاب الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزكيته وتقديسه ، او تدبر مقدمتنا لكل منهما ، تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحه على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلك تكون من حزب الدعاة الصالحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات ، كإبراء الاكمه والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون الوثنية والدجل

الا وانه قد نجم في هذين القرنين قرنان او قرون من أدعياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وانهم إلا مسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، ومثلوا لهم الشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لانفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الالوهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الانسان، الكافرين بنعمتي العقل والقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعلم والعقل، وان الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للاجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لاقوامهم، فوالله لو صحت فتنتهم لاستولى الانكليز على بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكليز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال.

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب[1] أن يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظاما، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالا، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطرة كر، وينضوي اليهم بعض اللاحدة طمعاً في أموالهم، لا إيمانا بمسيحهم او الههم؟

أوليس باوغل من هذا في أعماق العجب واولغ في احشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمي الشرق، وامامي الاسلام بالحق، عن تأليف حزب لتعميم اصلاحهما واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربي الناشئة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بعلاجهم؟ على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق. واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لاتدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

(١) ابو العجب الشعوذي وكل من يأتي بالاعاجيب

ثم ان ذلك لعجيب ! وان هذا لاعجب منه . ويشبهما في العجب أن المنتمين الى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونا وتناصراً وعصبية ودعاية : أفلا أنبئك بالسبب ، الذي ينتاشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد العبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للعقيدة ، والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا لسلطان ورائي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا الى بعضها فأساسها العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر يقدس منتحلها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لأنه تعبدي وعصبيتهم تكون أقوى لأنها وجدانية لا عقل الافراد ولا رأي الجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة ، خير للجماعات والشعوب التي تأخذ بها من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية ، من حيث جمع الكلمة ووحدة الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء ، مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل مايقرره شيوخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه ، سواء أعقله أم لم يعقله ، فان نازعه فيه حكم بكفره ، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لعصبيات لها رؤساء يطاعون باسمها ، وأكثرهم يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئا منها فانما هو لفظ ينقله ولا يعقله ،

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الارادة في عمله . ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خادمين للمستبدين ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الاصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام دينا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكيمان المجددان الافغاني والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصومهما منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد – ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدروهما قدرهما هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلة من المدنيين وقليل من المعممين

ولو كان ما دعا اليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لاتبعه له هؤلاء الانصار عدد كبير منهم كما قد حصل لتلاميذهما بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الالوف وألوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لهم تعبده الخفي ، ومعرفته بأسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يعتقد وجوب كتمانها لأنها غير طبيعية ، فاظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم ، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وانه غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما ، فقد كان في الازهر لا يعلو قوله قول ولا يغلب رأيه رأي . وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والمنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدين الديني والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

وخلاصة ما أريد عرضه على قراء هـذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والدنيوي. هذا ما صرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا ما يعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولا وكتابة كما يرا القاري، فيما كتبه بعضهم في تأبينهم الاستاذ الامام وترجمتي له [illegible] وقد ذكرت كثيرا منها في الشهادات المعدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء.

والجهاد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح الديني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسق أمره وتثبت بواثيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب الدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر لهؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الخاطبة، واقلامهم الكاتبة، مالم يكونوا يحتسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ

راجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وأنما الاعمال بالخواتيم

(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

﴿ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ﴾

المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ

(١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .

(٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجعلها أصلا لخلاصة لتاريخه طلبت منه

(٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العرابية ومذكراته الوجيزة فيها

(٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها، وبعض المكاتبات بينه وبين أعضائها

(٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبييضها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر

(٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر

(٧) جملة من المكتوبات والرسائل والقصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده

(٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منثورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالات له

(٩) مقالاته الإصلاحية في جريدة الوقائع المصرية

(١٠) مجموعة العروة الوثقى بعضها بخطه وبخط بعض إخواني

(١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه

(١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر

(١٣) تقرير محمد بك ابو شادي في مسألة فتوى طعام اهل الكتاب

(١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الائمة في الفتوى الترانسفالية لجماعة من أكابر علماء الازهر

(١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه

(١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين

(١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته

(١٨) كتاب الدفاع عن العرابيين لمحاميهم مستر برودلي

(١٩) ما كتبه لي أصدقاؤنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه

(٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدته من معاشرته ٨ سنين

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢٦ : ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢ : ١٠١)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للآخرين ، ومننت على عبادك بمن بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ورحمتك العامة للعالمين ، فصل وسلم اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين هديه واصلاحه من بعده ، حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

اما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار ، إنه قلما يُنسى ذكر الحكيمين المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ؛ فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتئون يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي أعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون يجعلونهما مضرب الامثال ، و يتناقلون مايؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلائل الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وان لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، ومغنيان عن تسميتهما

وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة العصرية في مصر والافغان و إيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع تاريخ لها يدون سيرتهما ، و يفصل أعمالها الاصلاحية ، و يرون ان ما كتب في الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر يسير من أعمالها وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج يكتب في تاريخهما مالم يكتب مثله أولادهما وأحفادهما من دعاة الاصلاح والتجديد

و ينحون باشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ كان أخص مريدي الاستاذ الامام وناشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفراً جمع فيه أكثر منشآته القلمية، وجزءاً جمع فيه أهم ماقيل وما كتب في تأبينه ورثائه، وسماها الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لمثلي على هذا التقصير حق، واني بما يخصني من التثريب على لاجله وهو أكبره أحق، ورب لائم مليم، ورب ملوم معذور . وها أنذا ألخص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الاصلاح ماصلي نارها معه غيري . وحملت ماتصديت له من الضرر . غير متململ ولا ضجر. وأما ما لذع قلبي من نار فقده، فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم كنت مهدداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحول عن خطتي قيد شعرة

أعلنت عزمي على كتابة تاريخ الاستاذ الامام فرأيت أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاءه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت [illegible] الكريم ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا [illegible]

ثم أرسل إلي [illegible] باشا زغلول وكان عاد مع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فبلغني أنه هو واخوانه من مريدي الامام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط ان أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . و يعدون من بعده مسؤلين عنه

فاجبته اني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصلحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبدالكريم سلمان وحسن باشا عاصم ومحمد بك راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبدالرحيم الدمرداش (باشا) وقرروا انتداب أحدهم احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائباً عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل وبلغوا محمود بك عبده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ ، وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزيارة لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي، وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديو ومحيطاً بسياسته وسياسة الانكليز في الامور علماً . وهما الجانبان اللذان يحسب لرضاهما وسخطهما كل حساب

وكان كل ماقدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعها . وكان أول ماشاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فأما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالة مصر والسودان وتهييج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شيء منه في منشآته لان الحرية في مصر لاتسمح لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها. وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حوده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدنيتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وتركنا ما تعدد ا نكاثرة تحريضا عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جمل من بعض المقالات ماوافقته عليها إلا كارها . وأيقنت اني لايمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقيد بمشاورته بالحرية التي أريدها . وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابله مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالمجان ، و... ...

فهذا ماحملني على تسجيل ... ... ثم ... ... التسويف بجزء الترجمة ثم التطويل في ... ... الاستاذ الامام ... ... بذكر الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه

واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو وربه وأشار بالحبر الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تم على وفاة الامام سنتان ، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاقت بكبره سعة الحرية علينا ، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقتنع أحمد فتحي باشا نفسه بأن كتابة تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذرا ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبد الكريم سلمان إذ رأيته شاكا في بدئي بطبع الكتاب فاعترف بانه لايمكن نشره

وجملة القول ان طبع هــذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا و إن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والاوقاف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كان رياء القاري ، هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشا أيضا ، ومكانهما في حكومة جنابه مكانهما

وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها ، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بأمرها على المطبوعات ، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى مابعد الحرب بزمن طويل

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ ﻫ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرته ، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حرجهم بيد أنه قد عاقني عن افتراص هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم نقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به . وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى . وقد وجدنا بعض المطبوع [illegible] اعادة طبع أكثرها

وشرعت في تهذيب الكتاب [illegible] وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة [illegible] وكانت أقدره بأربعين كراسة (ملزمة) أو مائة ، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواده ومسائله ما كنت ذاهلا عنه حتى بلغ ما يراه القاريء ، وقد صرفت نفسي وحبستها على كتابة تلك الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملا آخر حتى تم طبعه في هذه الايام وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله

كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة ، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال ، والاناة والاستعجال ، ولم تكن مواده مجموعة مرتبة وانما جرت في ترتيب أكثرها على ما كتبته في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته ، ومنها ما ليس له ذكر في تلك الترجمة ، ومن ثم يجد القاريء فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد ، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق ، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي ، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فانني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتى صار يثقل حمله، وعطلت أهم أعمالي لأجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الازهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعد ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ما ذكر وأعد فوائده واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألخص آراءه في التربية والتعليم قاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذاً لكانت الفائدة اتم والنفع أعم، واذ تعذر علي كتابة هذا فاني أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته . وعسى أن أوفق لهذا في الجزء الذي أرجو أن يكون هو المكمل له

وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته و[ما ...] وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ماهو منتقد [illegible] يعز أن يوجد مثله بين اثنين من الناس، وإذا أعلم أن منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صوابا عندي، ومنها ما ينتقد علي نشره لأن مثله غير معتاد أو لانه من مبالغاته التي ربما كان يقصد بها التأثير الخاص، ككلمته في تعريف الفقهاء، وهذا نادر

ومن أهم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأي ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاري به خبرا، ويحكم عليه حكما صحيحا ، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم ، واخفاء هناتهم ومثالبهم . انما هم شعراء مداحون ، لا مؤرخون حقيقيون .

فاذا رأى القاري، اني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام ، الذي قبله وأجازه الرأي العام . أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الازهر ـ واني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقا بزعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة ، صرحت بانه كان كأستاذه لا يخلو من الحدة، ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع ، المغريين لصاحبيهما بايثارهما على المصلحة العامة ـ وأني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبده ومحافظته على تهجده . صرحت بانه كان يجمع بين الصلاتين في الحضر أحيانا ترخصا اجتهاديا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثاً صحيحا أخذ به غيرهم من الائمة

اذا رأى القارىء هذا وذلك أيقن انني لم أكن محابيا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسلك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون أئمتهم وزعماءهم صورا مكبرة مزينة مجملة بما يظهر محاسنهم ويخفي مساويهم، أو يجعل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقربين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف، ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة ؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامة تجديد واصلاح، لازعامة رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيعجل لنفسه [illegible] الاصلاح نسيئة؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمرة اصلاحك في حياتك؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بعدي

وجملة القول ان هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلما وعملا وصدقا واخلاصا. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضريب، وانه لهو السري الاحوذي العبقري الحقيق بلقب « المثل الاعلى » من ورثة الانبياء في هذا العصر وان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد ابتذله الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

***

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدونني على نشر الكتاب، لانه يحرضون على اثارة الهمم، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

ويليهم المستعدون للاصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لفقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية، وأوضح هداية، فلا يلبث قارئه أن يكون منا وينصرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فإن الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا اتفقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليهـا ، مالم يكونوا دعاة للالحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة. بل كان المخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لاكمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تاريخ أحرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصرون على التقاليد والخرافات الذين طبع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات، فقد يوجد فيهم من يحسن لنا الحركات، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدمغ الباطل والنور يطرد الظلمات، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين. يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء نحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للاصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما . ونسأله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

فتاوى المنار

(اسئلة من عالم راخو فتسا بززرن في يوغوسلافية ـ اوربة)

تأخرت سهواً وقد سبق لنا بيان أكثرها

(س ١ ـ ١٠) من الفقير العاجز يحيى سلامي ألايبكى إلى السيد الجليل ملجأ الباحثين وملاذ الناقدين ، مفتي الانام ، شيخ مشايخ الاسلام ، الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) الاغر الاجل الاسلامي عصر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد أتيح لي أن أسأل حضرتكم عن حقيقة المسائل الآتي ذكرها وأسترشد بدلالتكم وارشادكم إلى صحيح الجواب الذي هو هدى القرآن والسنة النبوية

(١) ما معنى قوله تعالى في حق ادريس عليه السلام (ورفعناه مكانا عليا) الآية ؟ هل ادريس في قيد الحياة ام لا ؟

(٢) أكان معراج نبينا ﷺ الى السموات والى ماشاء الله جسمانيا ام لا ؟ وما معنى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ...) ؟

(٣) هل كان الطوفان على قوم نوح عليه السلام فقط او لجميع العالم ؟ وما معنى قوله تعالى (واستوت على الجودي)

(٤) ماهي حقيقة طير الابابيل الواردة في سورة الفيل ؟

(٥) هل جملة « من زار قبري وجبت له شفاعتي » حديث صحيح ام لا ؟

(٦) « القناعة كنز لايفنى » هل هي من الاحاديث الصحيحة الواردة ، وما معنى القناعة ، أيمكن أن يكون مفهومها الاقتصاد بتعبير هذا العصر ؟

(٧) أتأكل الارض أجساد الانبياء والاولياء وحفاظ القرآن الكريم ، أم لا كما هو مشهور عند العامة بعدم أكلها ، وقد روى الفقيه ابو الليث السمرقندي في كتابه (تنبيه الغافلين) في « باب فضل الجمعة » حديثا مسنداً بهذا الشأن

(٨) كيف كان النبي ﷺ يصلي الجمعة والخلفاء الراشدون بعده والاصحاب والتابعون رضوان الله عليهم

(٩) رجل رضع ثدي امرأته ماحكمه في الشرع هل تحل له أم لا؟

(١٠) « الجمعة » ما حكمها في الشريعة السمحة ؟

واخو فنسا (يوغوسلافيا)

[أجوبة المنار]

(١) رفع ادريس عليه السلام

قال الحافظ البغوي في تفسير (ورفعناه مكانا عليا) : قيل هي الجنة وقيل هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا وقيل انه رفع الى السماء الرابعة . وروى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى ادريس في السماء الرابعة ليلة المعراج اهـ وذكر بعد هذا عن كعب الاحبار قصة اسرائيلية في رفعه وسببه وهي من قصصه الخرافية [illegible] رضي الله عنهما فلا يعتد بها قال العماد ابن كثير [illegible] من أخبار كعب الاحبار الاسرائيليات وفي بعضه نكارة والله أعلم وعزاه اليه الحافظ ابن حجر في الفتح أيضا

واقول الاول وهو تفسير المكان العلي بالجنة مروي عن الحسن البصري وهو لايعارض بحديث المعراج فان الانبياء الذين رآهم النبي ﷺ في ليلة المعراج قد ماتوا في أزمنتهم ودفنوا الا ماورد في عيسى عليهم السلام . وقد ورد أيضا ان النبي ﷺ رأى موسى في تلك الليلة في قبره بالكثيب الاحمر من فلسطين . فهذه امور روحانية غيبية لانعلم كنهها . وقد قال الله تعالى في الرسل عليهم السلام (ورفع بعضهم درجات) والظاهر ان ادريس مات في الدنيا كغيره قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وكون ادريس رفع وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية

(٢) المعراج جسماني أم روحاني

الخلاف في هذه المسألة مشهور يذكرونه في القصة التي يقرءونها في الاحتفال الذي يجتمع له الناس في ليلة ٢٧ رجب من كل عام . والروايات فيه متعارضة

مناقضة ، والجمهور على أنه بالروح والجسد ، لأن الانسان روح في جسد ، وفي اليقظة لان جمهور المحدثين حكموا بغلط رواية شريك في كتاب التوحيد من صحيح البخاري في كونه رؤيا منامية . وهي في أمر من أمور عالم الغيب فلا تقاس على عالم الشهادة ، والمعقول في فهمها أن تكون الروحانية هي الغالبة على الجسمانية فيها ، فيكون الرسول ﷺ فيها كالملائكة حين يتمثل في صورة جسدية كما تمثل جبريل للنبي ﷺ مرارا ، وكما تمثل للسيدة مريم عليها السلام ، وكما تمثل غيره من الملائكة لابراهيم ﷺ ، وبهذا التقريب يزول كل إشكال في فهمها ، فان الروح إذا غلب سلطانها على الجسد تلطفه فيخف ويكون كالاثير الذي يفرضه علماء الكون في نفوذه من الكثائف ، وتقطع به المسافات الشاسعة بسرعة النور او اسرع من الاثير ، نقول هذا على طريقة التقريب للفهم ، وعالم الغيب لا نعرف أسراره ، ونجهل أطواره ، إلا لمن زج فيه ،

وأما قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) فمعناه : وما جعلنا الرؤيا التامة [illegible] للناس في دينهم ظهر بها تمرد المشركين الكافرين ، وزلزال الضعفاء ، ويقين المؤمنين ، وليس في القرآن بيان لهذه الرؤيا أوضح من قوله تعالى من سورة الفتح (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) الآية . وذلك ان النبي ﷺ رأى في منامه انه دخل - ومعه أصحابه - المسجد آمنين فطافوا بالبيت وحلقوا وقصروا ، وكانت هذه الرؤيا سبب عمرة الحديبية المشهورة ، فصدهم المشركون عن دخول مكة وعقدوا معهم ذلك الصلح الذي ساء جمهور المسلمين ، وكادوا يعصون الرسول ﷺ إذ أمرهم بالتحلل من عمرتهم بالحلق أو التقصير ، لولا أن ثبتهم الله تعالى وأنزل عليهم السكينة . وهذا التفسير للرؤيا رواه ابن مردويه عن ابن عباس (رض)

ولكن هذه الواقعة كانت سنة ست من الهجرة ، والآية في سورة الاسراء وهي مكية ، فقيل ان الله تعالى أراه ذلك وأخبره به في مكة ثم كان تأويله بعد الهجرة ، وكثيراً ما يقولون في مثل هذا ان الآية مدنية ووضعت في هذه السورة لمناسبتها لها ، وهو على الوجهين خلاف الظاهر

وفسرها بعضهم بالرؤيا التي ذكرت في سورة الانفال (إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكن الله سلم) وما ورد في سياقها في الحديث من ان الله أرى نبيه ﷺ مصارع رؤسائهم في الكفر، وهذه كانت بعد الهجرة أيضا ولكن ورد انه ﷺ ذكرها في مكة قبل الهجرة فهزيء به كفار قريش ، وفي الصحيح ان سعد بن معاذ أتى مكة عقب الهجرة وقبل وقعة بدر فنزل على صديقه في الجاهلية أمية بن خلف وكان مما أخبره به قوله : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول انهم قاتلوك — يعني للمسلمين — قال بمكة ؟ قال لا أدري ففزع أمية لذلك فزعاً شديداً . وفي رواية انه قال له انه قاتلك — يعني النبي ﷺ — وان أمية قال : فوالله ما يكذب محمد . ولما دعاهم أبو سفيان للخروج إلى بدر امتنع أمية من الخروج خوفا من القتل لاعتقاده أن النبي ﷺ لا يكذب وإن أخبر عن المستقبل !! فما زال به أبو جهل حتى خرج وقتل

وفسرها الجمهور بما جاء في حديث الاسراء من ان فتن بعض الناس به بارتداد بعض ضعفاء الايمان وخوض المشركين في اخباره ﷺ بما هو غير معقول خلافا لعادته ، واحتج به من قالوا أن ذلك كان رؤيا منام ، ورواه ابن اسحاق عن معاوية بن أبي سفيان ، وهو صريح رواية شريك في البخاري ، والجمهور على خلافه ، وقد حكموا بغلط شريك لشذوذه عما رواه الكثيرون كما تقدم . وقالوا ان لفظ الرؤيا قد يطلق على ما يرى في اليقظة ليلا وقيل مطلقا ولا يعرف له نقل ، الا ما روى البخاري عن عكرمة عن ابن عباس في تفسيرها : انها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به . واللفظ صريح في أن المراد بها شيء اراه الله تعالى إياه في تلك الليلة لا نفس الاسراء ، ولهذا قال الحافظ في شرحها انه لم يصرح بالمرئي ، وذكر عن سعيد بن منصور من طريق أبي مالك : هو ما أري في طريقه الى بيت المقدس ، أي وسنه انه رأى عيراً لهم قد ضلت وجمها فلان ، فلا اشكال في هذه الرواية محصور في إضافة الرؤيا إلى العين وهو خلاف استعمال القرآن والاحاديث الكثيرة وما نقل رواة اللغة . والآية صريحة في أن هذه الرؤيا كانت فتنة للناس لا بعض ما شاهده ﷺ في ليلتها . وهذا المكان لا يتسع لتحرير هذا البحث

وفسرها بعضهم بما روي من رؤيته ﷺ كأن بني أمية يتعاورون على منبره وقد كان ملك بني أمية مثار أكبر الفتن في الاسلام . وقد عرفت رأي الجمهور

(٣) طوفان نوح

ظاهر القرآن انه كان على قوم نوح فقط لانه عقاب لهم ، وهل كان يوجد على الارض غيرهم من البشر حتى يكون لهذا السؤال وجه من النظر ؟ قد يقال انه لم يكن يوجد غيرهم بدليل قوله تعالى (وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) وهذه الدلالة غير قطعية فان كل قوم يطلقون لفظ الارض على أرض وطنهم كقوله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) فالمراد بالارض هنا أرض مكة ولهذا أمثال

والتحقيق في المسألة انه ليس في القرآن نص قطعي على ان الطوفان عم الارض كلها ولكنه هو [illegible] من ظاهر الآيات في القصة وكان عليه جميع أهل الكتاب ولا يوجد دليل قطعي يصرف عن هذا الظاهر الظني فنحتاج إلى تأويله وما يقوله علماء الجيولوجية قد يرد على نصوص التوراة التي تحدد تاريخ نوح والطوفان بتحديد قريب ، اذ يجزمون بان الارض كانت فيه على ماهي عليه اليوم بالتقريب، والقرآن لم يحدد تاريخ التكوين والبشر ببضعة آلاف من السنين كسفر التكوين بل قال الله تعالى فيه (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) فعلى هذا يحتمل أن يكون الطوفان قد وقع منذ مئات الالوف أو ألوف الالوف من السنين، إذ كانت اليابسة التي تكون في الكرة المائية صغيرة والجبال فيها قليلة غير شاهقة، فطبيعتها كانت قابلة لمثل هذا الطوفان ، وجاء في المواقف عن الامام الرازي ان هذه الارض كانت مغمورة بالمياه بدليل ما يرى في رءوس الجبال من الاصداف البحرية ، وكذا الاسماك المتحجرة ، وهذا متفق عليه عند علماء الكون في هذا العصر. والجودي المكان او الجبل الذي استوت عليه السفينة ، وليس في الكتاب ولا في الاحاديث المرفوعة تعيين مكانه لان العبرة لا تتوقف عليه وللاستاذ الامام فتوى في أن عموم الطوفان هو ظاهر النصوص لا مدلولها

القطعي ، وانا لا نعدل عن القول بالظاهر إلا إذا قام دليل قطعي على خلافه ، ولما يقم هذا الدليل عندنا وهذه الفتوى منشورة في المنار وفي تاريخ الاستاذ الامام

(٤) حقيقة الطير الابابيل

ليس عندنا دليل نقلي عن الله ولا عن رسوله (ص) نعرف به حقيقة تلك الطير ولكن جاء في الاخبار التاريخية التي كانت العرب تتناقلها ان أصحاب الفيل الذين جاؤا لهدم بيت الله تعالى في مكة أصابهم وباء الجدري والحصبة فأهلكهم. فالظاهر ان تلك الطير الابابيل أي الجماعات هي التي حملت اليهم جراثيم هذا المرض بصفة وبائية إذ رمتهم بحجارة من سجيل وهو الطين المتحجر ، وقد روي انها جاءت من البحر فيظهر انها كانت ملوثة بسم المرض من مستنقع في شاطئه فأصاب ابدانهم من جروح تحدثها بها التي كانت فيهم ، واختلطت بطعامهم وشرابهم. وجوز شيخنا في تفسير السورة أن تكون تلك الطير من الاحياء الصغيرة التي تسمى في عرف أطباء هذا العصر بالميكروبات أو ميكروبات كما بيناه في تفسير (جزء عم)

(٥) حديث «من زار قبري وجبت له شفاعتي»

رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب عن ابن عمر وكذا ابن خزيمة ، وفي سنده عبدالله ابن عمر العمري ، قال أبو حاتم مجهول ، وموسى بن هلال البصري قال العقيلي لا يصح حديثه . وهكذا قال ابن القطان فيه ضعيفان وقال النووي ضعيف جداً

(٦) « القناعة كنز لايفنى »

يروى بلفظ « القناعة مال لاينفد وكنز لايفنى » رواه الطبراني في معجمه الاوسط . وقال الحافظ الذهبي سنده ضعيف وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما أعطاه » وفي معناه عند الترمذي والنسائي في الكبير من حديث فضالة بن عبيد « طوبى لمن هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » صححه الترمذي. والقناعة ضد الطمع فهي عبارة عن رضاء الانسان بما يصيبه من الرزق قل أو كثر ، وعدم طمعه فيما ليس

لولا استشرافها لما في أيدي الناس. هذا هو التحقيق، واقتصر بعض العلماء في تفسيره على الاجتزاء باليسير من اعراض الدنيا لان من رضي بالقليل كان بالكثير أرضى، وقد يكون الاقتصاد في المعيشة سبباً للقناعة بل قال أبو حامد الغزالي في الاحياء: الاقتصاد في المعيشة هو الاصل في القناعة ونعني به الرفق في الانفاق وترك الخرق فيه اهـ

(٧) أجساد الانبياء والصالحين بعد موتهم

ان سنة الله تعالى في اجساد البشر واحدة في حياتهم وموتهم وانما يمتاز الانبياء على غيرهم بما هو خاص بمعنى النبوة وما يتعلق بها لقوله تعالى لرسوله (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) الآية . وقوله له تلقيناً لجواب طلاب الآية منه (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) ومن ثم يذكر العلماء في كتب العقائد انه يجوز على الانبياء طروء الاعراض البشرية عليهم من المرض والتعب والجوع والعطش والنوم والموت والقتل لان ذلك لا يخل بوظيفة الوحي ولا بالتبليغ له ومثلها فناء الجسد ولكن ورد في بعض الصحاح أحاديث آحادية في ان أجساد الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا تأكلها الارض، أمثلها حديث أوس بن أوس في فضل يوم الجمعة الذي فيه ان الصلاة عليه ﷺ تعرض عليه . قال أوس : قالوا يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت -يعني بليت- قال «إن الله عزوجل حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء» رواه أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والبيهقي في الشعب وفي رسالته (حياة الانبياء) وغيرهم وقد صححه بعضهم وحسنه آخرون منهم المنذري . لكن قال الحافظ السخاوي بعد أن أورد تصحيحهم وتحسينهم مانصه : (قلت ولهذا الحديث علة خفية وهي ان حسينا الجعفي راويه أخطأ في اسم جد شيخه عبد الرحمن بن يديد حيث سماه جابراً وانما هو تميم كما جزم به أبو حاتم وغيره وعلى هذا فابن تميم منكر الحديث ولهذا قال أبو حاتم ان الحديث منكر، وقال ابن العربي انه لم يثبت . لكن رد هذه العلة الدارقطني وقال ان سماع حسين من جابر ثابت وإلى هذا جنح الخطيب والعلم عند الله تعالى

وهنالك أحاديث أخرى ثلاثة منها بمعنى هذا الحديث ولكنها دونه في السند ومنها ماهو في تبليغ الملائكة إياه ﷺ صلاة من يصلي عليه وقد تكلمنا عليها

في أواخر المجلد الثامن من المنار (صفحة ٩٠٣ـ ٩٠٩) وقد قلت فيها إنها في مجموعها تدل على ان الانبياء أحياء في البرزخ ولكن هذه الحياة غيبية لانعرف حقيقتها وليست هي كالحياة في هذه الدنيا كما حققه ابن القيم في كتاب الروح وغيره من المحققين الخ

وجملة القول ان هذه المسألة ينظر فيها من وجهين (أحدهما) أنها من مسائل الايمان بعالم الغيب فهي اعتقادية . وما يجب اعتقاده والايمان به لايثبت إلا بالنصوص القطعية الرواية والدلالة ، وليس فيها نص ظني راجح ، فضلا عن القاطع (وثانيهما) أنها من مسائل المناقب والفضائل التي يقبلون فيها الروايات الظنية ولا يأبون اثباتها بما دونها من الضعاف . وبهذا النظر قبل بعض العلماء ماروي فيها وان كان معلولا ، وحينئذ يقال في كون معناها مخالفاً لسنن الله تعالى في الاجساد ، انها تنظم في سلك خوارق العادات ، واذ كانت ليست بعقيدة واجبة ولا يترتب عليها عمل فلا حرج على من صدقها ولا على من أنكرها ، ولكن بعض العلماء أدخلوا فيها القياس وهو مما لايقاس عليه ولم يثبت ، فقالوا ان جميع الاولياء والشهداء كالانبياء في هذه المنقبة ، وزاد آخرون العلماء والمؤذنين المحتسبين ، ويتساهل في كتابة هذا المؤلفون المقلدون السطحيون والخرافيون كأبي الليث السمرقندي ، وينقلون فيها حكايات شبيهة بمثلها النصارى في شهدائهم وقديسيهم وان التسليم بهذا الخرافات وعدم انكار العلماء لها قد كان فتنة للعقلاء المستقلين ، منفراً لهم عن الدين ، وقد نبش بعض رجال الحكومة التركية اللادينية الحاضرة بعض قبور الاولياء المعتقدين عند العامة أمام الجماهير منهم فاروهم بأعينهم انه ليس فيها الا عظام نخرة ، واستدلوا بهذا على ان الدين كله خرافات باطلة . فما يتساهل فيه الخرافيون لتقوية إيمان العوام ، قد يفضي الى هدم ايمان الخواص والعوام !

(٨) صفة صلاة النبي ﷺ الجمعة

كان الصحابة يدعون الى المسجد يوم الجمعة متنافسين في التبكير ما استطاعوا فيصلي كل ماتيسر له فاذا جاء وقت الصلاة خرج رسول الله ﷺ من بيته الى

المسجد وابتدر المنبر وحينئذ يؤذن المؤذن بين يديه فاذا فرغ من أذانه قام ﷺ وخطب الناس خطبتين يفصل بينهما بجلسة خفيفة ثم ينزل فيصلي بالناس الجمعة فاذا فرغ انصرف الى بيته فصلى فيه ركعتين وخرج المسلمون كذلك فانتشروا في الارض يبتغون من فضل الله كما أمر الله تعالى . وقد بينا الروايات في هذا مراراً ، وهكذا كان الخلفاء يصلونها الا ان عثمان (رض) زاد أذاناً خارج المسجد لاعلام الناس بالوقت لانهم كثروا وكثرت شواغلهم

(٩) حكم من رضع ثدي امرأته

رضاع الرجل الكبير لا تثبت به البنوة فان جماهير السلف والخلف على ان الرضاعة المحرمة ما كانت في الصغر إذ يكون مدار نمو البدن على الرضاع الذي أشير اليه في الاحاديث بأنه ما كان من المجاعة وقبل الفطام والفصال ، وما فتق الامعاء في الثدي ، اي في أيام الثدي وهو حولان عند الجمهور وسنتان ونصف عند أبي حنيفة وهناك أقوال أخرى [illegible] ولا يعارض [illegible] الاحاديث عائشة في مسألة سالم مولى ابي حذيفة [illegible] وكان عبداً له فاعتقه فلما بلغ الحلم صار يشق على ابي حذيفة دخوله على أهله فذكرت زوجه سهلة بنت سهيل ذلك لرسول الله ﷺ فقال لها « ارضعيه تحرمي عليه » ففعلت فزال ما في نفس ابي حذيفة . وقد تأول الجمهور من السلف والخلف هذا الحديث بانه فتوى خاصة في حال ضرورة اذ كان ابو حذيفة وأهله في حاجة شديدة الى خدمة هذا الغلام الذي رباه هو وامرأته صغيراً . وقال بعض فقهاء الحديث انه يقصر على مثل هذه الحال من الضرورة . وما كان كذلك في مراعاة المصلحة لا يدخل فيه هدم أكبر المصالح الزوجية وهو تحريم المرأة على زوجها اذا مص ثديها عن شهوة ومداعبة فيحكم عليه بانه صار ولداً لها كالأولاد منها، على انه ينبغي اتقاء ذلك احتياطا

(١٠) شرب الجعة المسماة بالبيرا

المشهور عن الجعة انه يسكر الكثير منها دون القليل في الغالب فهي محرمة لما حققناه في التفسير وغيره ان ما أسكر كثيره فقليله حرام

الحاد في القرآن

ودين جديد بين الباطنية والاسلام

المقالة الرابعة

﴿ السنن الكونية الاجتماعية ونظام الكون ﴾

قد أكثر هذا الملحد من ذكر السنن الالهية ونظام الكون في هوامشه ومقدمتها ، وجعلها هي السنن في جحود آيات الله تعالى التي أيد بها رسله ، وتحريف الآيات الواردة فيها وفي أشراط الساعة كما تقدم ، وقد وعدنا بإظهار جهله في هذه المسائل فنقول :

إننا نفضل أن قد انفردنا دون سائر المفسرين بالكلام على هذه السنن والنظام الالهي في تفسيرنا ومجلتنا ، وهو قد سمع ذلك منا ، وقرأه لنا ، ولكنه لم يفهمه ، بل لبسه كالفرو مقلوبا ، ونكس على رأسه فأخذه منكوسا . نحن قد أوردناه لتقوية الايمان ، والحجة على إعجاز القرآن ، فجعله هو شبهة على الايمان بالغيب وجحود آيات الانبياء عليهم السلام ، وما أوردناه من تأويل لبعض ما يحتمل التأويل على طريقة المتكلمين ، قصدنا به تقريبه من عقول الجامدين على المألوف من النظريات العقلية أو العلمية ، لئلا يردوا النصوص بها فيرتدوا . وقد صرحنا مرارا بأن الذي ندين الله به من اخبار عالم الغيب وما في معناها من آيات الله تعالى في الخلق ، هو الايمان بما صح منها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل . وقد جعلها هذا الملحد قانونا لتحريف ما لا يحتمل التأويل ، كما قال الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) الآية

فوجب أن نأتي بخلاصة في المسألة مما نشرناه في مواضع متفرقة في المنار وتفسيره ، ونقفي عليها بتفنيد ضلالته فيها فنقول :

قد أخبر الله تعالى في مواضع من كتابه بان له سنناً في عباده والاقوام الذين بعث فيهم رسله، وان سننه لاتبديل لها ولاتحويل ، واخبر أيضاً بانه أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل شيء ، وأن كل شيء عنده بمقدار ، وان خلقه في منتهى الاحكام والنظام.

فما بينه الله تعالى من أنواع هذه السنن ، كنصره لرسله على الجاحدين المعاندين لهم ، ومن إهلاكه للظالمين ، ومن تدميره على الفاسقين المفسدين ، فهو كما قال تعالى

وكذا مابينه من نظام الخلق ومقاديره ، ككون الشمس والقمر بحسبان ، وما جعله لها في السماء من المنازل والبروج ، ومن كونها لاتفاوت فيهما من فطور ولا فروج ، فهو كما قال عز وجل

واما مالم يبينه لنا من ذلك في كتابه بنوعه او عينه فالطريق إلى معرفته هو ما أرشدنا اليه من النظر في ملكوت السموات والارض وما خلق من شيء ، والتأمل في آياته في الآفاق وفي أنفسنا ، والسير في الارض لمعرفة آثار من قبلنا ، وكذا من في عصرنا بالاولى ،

قد أرشدنا كتاب الله عز وجل الى كل هذا . وقد أشرنا في مواضع من المنار وتفسيره الى ما هو ثابت بالحس من ان اعلم الناس بسنن الله وحكمه ونظمه في خلقه هم أكثرهم انتفاعا بهذا العلم ، واهتداء به الى تسخير هذا الكون

سنن الله مادية وروحية

وبينا أيضاً ان هذه السنن ، وهذا النظام والتقدير ، والاحكام والتدبير ، عام في كل ما خلقه تعالى من عالمي الغيب والشهادة ، او عالمي الاجساد والارواح ، او المادة وما وراء المادة ـ على اختلاف الاصطلاح

وصرحنا بان ما أيد به تعالى رسله من المعجزات ـ وكذا ما دون ذلك من خوارق العادات التي تسمى الكرامات ، ـ إذا لم يكن جاريا على سنن النظام المألوف في القوى الجسدية ، والنظم المادية ، فقد يكون جاريا على السنن الروحية ،

والمقادير الغيبية ، وقد يكون بمحض القدرة الكاملة ، فهو مزيد كمال في قدرته وحكمته لا نقضاً لها ، ولا نقصاً فيها

فإذا لم يكن من سنته تعالى في حياة الجسد إذا فقدت بالموت ان تعود إلى الميت ، فان هذه السنة السلبية لاتنافي أن يهب الله تعالى بعض خواص الروحانيين من خلقه كالملائكة او المسيح الذي خلقه بالنفخ من روحه في أمه ، ان يمد بهذا الروح القوي ميتاً كالعازر او البنت اللذين روت الاناجيل خبر احيائه اياهما ، فيسري فيهما من روحه ما يجتذب اليهما الروح التي خرجت منهما بقدرة الله تعالى ، ومثل ذلك حلول الحياة في عصا موسى في الوقت المعلوم الذي أمره الله فيه بالقائها عند بعثه ، وعند امتحان السحرة له ، والله على كل شيء قدير

لافرق بين مالا نعلمه من هذه السنن الروحية وما نعلمه من السنن الجسدية ، في كون كل منهما فعل مبدع الارواح ، وخالق الاجساد ، ولا يعترض باحداهما على الاخرى عند من يؤمن بأن الله تعالى هو خالق هذه السنن ومقدرها ، ولكن هذا الامر النادر يستغربه من لا يؤمن بأن كلا منهما فعل الله القادر على كل شيء

ومن الغريب أن أطباء هذا العصر واعلم علمائه الماديين يرون من الجائز في العقل الذي يقرب ان يصل اليه العلم ، أن تعود الحياة إلى جسد الانسان أو الحيوان بعد موته بمدة غير طويلة كحياة البنت الميتة التي دخل المسيح عليه السلام بيت أبيها وأمها وسأل عنها فقيل له انها نائمة حتى لاينغصوا عليه ضيافتهم له ، فناداها قائلا : « لك أقول ياصبية قومي » فقامت باذن الله تعالى .

وأغرب من هذا أن منهم من يقول امكان إيجاد الحياة في بعض الاجسام بطريقة علمية صناعية . ونقل أخيراً عن عالم منهم اسمه (مورجان) أنه قام بتجارب عملية أثبت بها امكان استيلاد مخلوقات حية على سبيل الشذوذ (Emergency)

وملحد دمنهور لايصدق ان المسيح أحيا ميتاً حياة جسدية باذن الله ، وانما يقول بقول ملاحدة الباطنية انه انما أحيا الناس من موت الجهل والرذيلة ، ولكن هذا النوع من الاحياء ثابت لجميع العلماء الذين يعلمون الصغار والجاهلين من الكبار ما يزيل جهلهم ويحييهم حياة دينية اوأدبية أخلاقية ، فهو لا يمكن ان تكون آية لعيسى عليه السلام

ينوه بها كتاب الله ، ويخبرنا أن الجاحدين لنبوته وصفوها بالسحر

وما عهد من المؤمنين بالله ورسله أحد ينكر هذه الآيات بمثل هذه الشبهة ، وانما عهد ذلك من الكافرين بالله وبرسله ، أو من الزنادقة الذين يظهرون الايمان ويسرون الكفر لخداع المؤمنين وتشكيكهم في دينهم توسلا إلى اخراجهم منه كالاحدة الباطنية

السنن من الممكنات بين المحو والاثبات

فإذا كنا نقول بثبوت سنن الله واطرادها اتباعا لما بينه الله من ذلك ، فالواجب في ذلك أن نتبع كتاب الله فيما بينه من خوارق العادات أيضاً . فلا نكون ممن قال الله تعالى فيهم (أفتؤمنون ببعض وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون)

وإذا أردنا أن نثبت هذه السنن ونطردها على طريق العلم ونبني عليه تأويل ما يخالفها كله من نصوص الكتاب والسنة على طريقة المتكلمين المعروفة (وهو ما يمكن أن يتمسك به ملحد دهري) فيجب علينا قبل كل شيء أن نبين ما تقوم الادلة العلمية القطعية على صحته واطراده واستحالة تغيره وتخلفه مطلقا ، وحينئذ لا نكاد نجد شيئاً منها بهذه الصفات ، إلا قليلا من الضروريات ، (ككون النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان) وليس منها عودة الحياة إلى من مات وأبطل العهد على موته كالبنت التي أحياها المسيح عليه السلام ، ولا إعادة وظائف التناسل إلى من فقدها من النساء والرجال ، كما وقع لزكريا وزوجه عليهما السلام

والقاعدة عند علماء الكون — حتى الماديين منهم — ان كل ما نقول انه من سنن الكون (أو نواميسه) فانما هو بحسب ما ظهر لنا ببحثنا وتجاربنا ، وأنه يجوز أن يظهر لنا ما يخالفه ويثبت لنا خطأنا فيه ، كما حصل مراراً فيما ظهر للباحثين من خطأ من كان قبلهم من العلماء والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ، ولا أرجع في التمثيل لهذا إلى ما نقض علماء الحضارة الاوربية من قواعد علوم اليونان والعرب وأفلاكهم

وفلسفتهم ، ولا إلى مانقض بعضهم من قواعد بعض في القرون الاربعة الماضية ، بل أكتفي بأهم ما حدث من ذلك في عصرنا هذا

عثروا على مادة (الراديوم) الذي لا يجهل اسمه قارىء للجرائد ، دع متلقي العلوم في المدارس . فكان بدء عصر جديد في الكيمياء والطبيعة تقوضت فيه سنن ونواميس كانت من المسلَّمات ، وثبت خلافها ، كاشعاعه الحرارة والنور إشعاعا دائما من غير أن ينقص من وزنه شيء ، وكعدم تأثير ما حوله فيه من حرارة وبرودة . وكتحول المادة الغازية التي تنبعث منه إلى عنصر الهليوم ، وبهذا ثبت شيء كان علماء هذا الفن يجهلونه إذ كانوا يقولون ان عناصر المادة البسيطة لا يتحول شيء منها فيستحيل إلى غيره

وقد كانت سنة الجاذبية من المسلَّمات التي لا نزاع فيها حتى قام الاستاذ إينشتين الالماني بتقويض دعائمها بنظرية النسبية التي فتحت في العلم باباً جديداً من أبواب العلم والاكتشاف في الطبيعيات والرياضيات أيضاً

وتلك نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي التي هدمها سنن كثيرة في الجيولوجية والنبات والحيوان والانسان قد وقعت في النزع والاحتضار ، كما بينا في مقالة خاصة في المنار ، أو قضي عليها بالتبع للقضاء على النظرية الميكانيكية التي بنيت عليها كما نشر في بعض الصحف في هذه الايام

أساس الكون ومصدره ومظهره

ومالي لا آتي إلى أساس هذا الكون والسنن التي قام بها تكوينه في الاطوار المختلفة — ألم يكونوا يقولون انه مؤلف من مادة ذات عناصر بسيطة وقوة هي منشأ التركيب الذي حدثت به الصور المختلفة في العالم كله

قد هُدم هذا الاساس ان لم يكن بما ثبت من تحول عنصر إلى عنصر ، فبما ثبت من تحول القوة إلى مادة ، ثم بما ثبت من أن ما نسميه المادة والقوة اصطلاح لا نعرف له حقيقة ، وان هذا الوجود الذي نعرفه في أرضنا وسمائنا ليس سوى مظهر من مظاهر تموجات الكهرباء ، وان كل ذرة من ذراته تتألف من عدة كهارب سلبية تدور حول كهرب ايجابي - والكهرب هو الوحدة من الكهرباء - وهذه

الكهارب لا يمكن أن يقال إنها مادة ولا إنها قوة ، وإنما حقيقتها مجهولة

وهذا الذي استقر عليه رأي علماء الكون أخيراً يؤيد ما أثبتناه في المنار وفي تفسيره من أن أول مظهر من مظاهر التكوين الذي نسميه المخلوق الاول مجهول للبشر ، وان علماء الكون اختلفوا في إمكان علم البشر به ، فمنهم من يقول انه يمكن الوصول الى العلم به بطول الترقي في معارج العلم . ومنهم من يقول بعدم إمكان ذلك ، ونقل هذا عن الفيلسوف سبنسر قبل القول الاخير بتركب الذرات من الكهارب ، ورأينا في هذه الايام من نقله عن الاستاذ «سليمان»

بل هو مثبت لاقوى الادلة العقلية على وجود الله تعالى عندنا وهو ان جميع مظاهر هذا الكون السماوية والارضية تطورات تستند الى حقيقة غيبية لا يعلم احد كنهها ، وقد بينا ذلك مرارا كثيرة منها مناظرة دارت بيننا وبين العلامتين صاحبي المقتطف

فاذا كانت المادة تصدر عن القوة كما قالوا فما المانع من القول بأن هذه القوة هي قوة الله وقدرته [illegible] من مظاهر تموجات الكهرباء المجهولة الكنه ، أي جمعا بين القول هنا وقول اتباع الوحي ان الوجود الممكن الظاهر ، صادر عن الوجود الواجب الغيبي الباطن (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

نكتفي بهذه الكلمة الوجيزة في سنن الوجود الظاهر المدرك بالحواس ، الذي بلغ البشر من العلم بها مستوى لم يعرف في التاريخ ما يقرب منه لأحد من شعوب الحضارة القديمة

وإذا نحن ارتقينا عنه الى علم النفس ، وما تجدد فيه عند علماء العصر علمنا أن في الوجود سننا غير سنن المادة بأنواعها بعد أن صار التنويم المغناطيسي من الحقائق الثابتة بالتجارب المطردة ، وما تبع ذلك وتقرر من بعض أنواع الكشف الذي يعبرون عن بعضه بقراءة الافكار وبمراسلة الافكار ، وقد شاهدنا بعض ذلك بالطريقة الصناعية ، بعد ثبوته عندنا بالهبة الالهامية .

ووراء هذا وذاك مسألة مناجاة الارواح التي آمن ببعض مظاهرها من لا يحصى لهم عدد من العلماء الطبيعيين والرياضيين ، ووقف كثير منهم عندها حائرين

وفوق ما ذكر كله قدرة رب العالمين، وإرادته واختياره في الخلق والتقدير والتدبير ، وهو واضع السنن والقوانين ، ومسخر الأسباب والنواميس، الحاكم بها وعليها وفيها بعد إيجادها، والمبدع لما شاء قبل وجودها وبعده (انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون ٭ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، واليه ترجعون)

الايمان بقدرة الفاطر فطري او فكري والشذوذ فيه

والايمان بقدرة الفاطر المبدع، الخالق المصور المقدر ، غريزي في هذا الانسان المفكر، ظهر في أجياله المفكرة ، في مظاهر مختلفة، من فطرية ساذجة ، وفكرية راقية، ووجدانية شعرية ، وروحانية إلهامية

وشذ أفراد من المفكرين في هذا الامر وفي اختلاف الناس فيه كشذوذ الناس في كل علم وعمل، لم يظهر لهم الصواب في جانب أحد منهم ، ولا في شيء آخر يصح أن يكون فصلا فيما اختلفوا فيه ، فكانوا فريقين (أحدهما) معطل لا يؤمن بشيء غيبي فوق [illegible] (والثاني) شاك حائر بين إثباته ونفيه

ذلك بأن البشر قد فطروا على التفاوت العظيم في الاستعداد للعلم والعمل، وهذا التفاوت يقتضي بطبعه الاختلاف في الفهم للشيء والحكم فيه ، والاختلاف بين الناس في وسائل معارفهم البشرية ومقاصدها، يفضي بهم الى الترقي فيها ، فهو نافع مالم يكن علة أو معلولا للتفرق والتعادي

ومن المعلوم بالعقل والتجارب انه لا مثار لاختلاف التفرق فيما ترتقي به الزراعة والصناعة ، ولا في وسائل انتشار التجارة ، إذ لا يرى أحد من الناس غضاضة على نفسه ولا على قومه في اتباع ما سبقهم اليه غيرهم فيه

وأما العلم بما يجب الايمان به من وجود الفاطر وصفاته وشكره وعبادته، وما يرضيه أن يكون عليه عباده، فهو مما لا يرتقي ويتمحص باختلاف الناس فيه ، ولا هو مما يسهل عليهم أن يأخذ كل قوم ما سبقهم اليه غيرهم فيه بكسبهم واجتهادهم، إذ لا يمكن أن يصل ذلك إلى درجة القطع التي يزول فيها الخلاف بالضرورة — وقد ثبت بالتجربة في الاجيال والآماد الكثيرة، انه كان أعظم أسباب التفرق والتعادي وسفك الدماء الغزيرة

حاجة البشر إلى الدين المستمد من الوحي

فمن ثم كان البشر في أشد الحاجة لبيان الحق فيه الى وحي من الله عز وجل تقوم به الحجة على جميع أولئك الفرق من المؤمنين المختلفين ، ومن الملحدين المعطلين، والشاكين اللاأدريين (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) الآية

وقد كان من حكم كتاب الله الحق فيما اختلف فيه الناس بمقتضى ما ذكرنا من غريزة التفاوت بينهم في العلم والفهم والحكم ، ان العالم كله صادر عن قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره ، سواء فيه ما ابدعه ابتداء ، وما خلقه بنظام السنن العامة في الأسباب والمسببات ، فالسنن وما وضعت له وجرت فيه كل ذلك بيد الله يتصرف فيها بمشيئته ليس مقيداً بشيء منها ، فهو إذا شاء غيرها ، ولكنه لايفعل إلا ماتقتضيه حكمته ، فصفات الله تعالى من العلم والحكمة والمشيئة والقدرة والرحمة لاتناقض ولا تعارض في متعلقاتها ، كما فصلناه في تفسيرنا

هذا حكم الله تعالى في كتبه لرسله كما تراه في نصوص آخرها الذي أنزله الله مصدقا لها ومهيمنا عليها ، وسنذكر بعض الشواهد منه فيها

ويقابله قول معطلة الماديين الذين ينكرون الخالق والخلق بالمشيئة ، وبعض الفلاسفة الالهيين الذين يثبتون لرب العالمين من صفات الكمال ماعدا الاختيار في المشيئة ، ومذاهبهم في تأثير الطبائع بذاتها ، وضرورة اتصال العالم بعلله لانها ، وكون الله تعالى خلق المادة وأودع فيها قواها ونظامها ، وتركها لنفسها فلم يبق له فعل فيها - كل ذلك معروف ليس من موضوعنا تفصيله والرد عليه ، وانما غرضنا من ذكره أن نبين ان الناس على قسمين : مليين على هدى أنبياء الله تعالى يؤمنون بان الله فاعل مختار بيده ملكوت كل شيء في كل وقت - وكافرين يزعمون ان كل حركة وسكون في هذا الكون تجري على سنن ونواميس فيه بمقتضى الضرورة لاتأثير فيها لموجود غيرها . وما يشاهدونه في كل زمن من وجود أشياء على غير هذه السنن المعروفة ، يسمونه « فلتات الطبيعة » ويقولون انه لابد له من سبب وان كنا لانعرفه . وما ينقل في كتب المليين من آيات الانبياء منهم من ينكره

ومنهم من يتأوله ، ومنهم من يقول انه من فلتات الطبيعة التي لم يظهر لنا سببها ، فمذاهبهم في هذه المسائل متعددة

وملحد دمنهور قد جرى على أصل هؤلاء القائلين بأن السنن والنواميس ضرورية لا يمكن تغيير شيء منها ولا تبديله ولو بفعل الله ومشيئته ، وأنه ما وقع ذلك في الماضي للرسل ولا لغيرهم ، فهو مخالف لجميع المليين من أتباع الرسل عليهم السلام ولولا هذا لم يكن محتاجا الى تحريف ما جاء في القرآن من اخبار عالم الغيب ومعجزات الرسل .

شبهة ملحد دمنهور في السنن وبيان بطلانها

قد يقول بغروره بجهله اني قد أحطت في هذا بما جهله جميع المسلمين وجميع المليين من قبلهم (أي وعرفه ملاحدة الماديين ولا سيما النهائية آخرهم) وهو ما نص عليه القرآن في مثل قوله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

ونقول في جوابه (اولا) ان سنة الله التي قال انه لا تبديل لها ولا تحويل هي نصر رسله على المعاندين لهم من أقوامهم كما هو صريح الآيات التي وردت فيها في سور الاسراء والاحزاب وفاطر والفتح ، وفي السور التي لم يذكر فيها انه لا تبديل لها أيضا

وجاء لفظ السنن جمعا بهذا المعنى في سياق الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وجاء بمعنى التشريع الديني في سياق محرمات النكاح وحكمتها من سورة النساء (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) فهو لم يقل هذا في أمر الخلق والتكوين ، وربما كنت أنا الذي التزمت اطلاق هذا اللفظ على ما يسميه علماء الكون والفلسفة بالنواميس الطبيعية في المنار والتفسير وفي نظام مدرسة الدعوة والارشاد ، إذ أطلقت اسم (سنن الكائنات) على الدروس التي وضعها الدكتور محمد توفيق صدقي (رحمه الله تعالى) في علم حفظ الصحة ومقدماته من علم الطبيعة

وعلم وظائف الاعضاء فشرتها في النار وطيتها على حدتها بهذا الاسم

وأول من أرشدنا الى كون أصول علم الاجتماع من سنن الله في خلقه، حكيمنا العربي الواضع الاول لقواعد هذا العلم عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى، فانه يكرر في مقدمته عقب بيان القاعدة العمرانية قوله : سنة الله في خلقه ـ أو سنة الله التي قد خلت في عباده. ثم زاد عليه في هذا أستاذنا الامام في مقالات العروة الوثقى الاجتماعية ، وزدت عليهما تعميم ذلك في النواميس الكونية كلها

هذا وانه ليس عندنا دليل ديني ولا عقلي على استحالة وقوع التبديل والتحويل في هذه السنن ولا على اطرادها وعدم الشذوذ فيها مع الجزم بامكانها،

وأما الأدلة العلمية المبنية على التجارب العملية فقد بينا آنفا ان أهلها لايقولون بوجوب شيء من هذه السنن المعروفة بحيث يستحيل نقضه وثبوت خلافه، وانهم يثبتون الشذوذ بالاسباب المجهولة المعبر عنها بفلتات الطبيعة، وبالاسباب العلمية العملية، وقد كان بعض الناس [illegible] أخبار عالم الغيب كالملائكة والجن والبعث بعد [illegible] لاتعقل، وما وصل اليه البشر في هذا العصر من أسرار الكهرباء لم يبق شيئاً من ذلك مستبعداً فضلا عن كونه محالا عقلا،

أفليس المؤمنون بوجود الخالق الفعال لما يريده وان « ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن » أولى منهم بالايمان بقدرته على التصرف في هذه السنن متى شاء؟

ثانياً : اذا قيل ان قوله تعالى (سنة الله) مفرد مضاف يفيد العموم ، وانه يجري فيه قول علماء الاصول: بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قلنا نعم ، وانما عمومه كل شيء في موضوعه ، وموضوع هذه السنة المنصوصة نياد الله من الامم مع رسلهم ، ويصح اطلاق اللفظ على غير ماورد به النص من قواعد الاجتماع والعمران أيضاً ، ولكن لا يصح الاستدلال بالنص على عدم التبديل فيها

ـ ثالثاً ـ ان سنن الاجتماع تختلف باختلاف أحوال البشر في البداوة والحضارة والقوة والضعف والعلم والجهل ، وآلات القتال والنقل، فهي أمور نسبية متبدلة ، لا قواعد رياضية مطردة ، وذلك معروف من سير الأمم وتواريخها . وانما

تكون سنة بحسب الاحوال التي تكون بها مطردة

مثل ذلك سنة غلب الكثرة للقلة التي عبر عنها الشاعر العربي بقوله :

ولست بالاكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

يراعى في محتها مساواة الكثرة للقلة في أسباب الغلب الصورية كالسلاح والنظام، والمعنوية كالصبر والثبات والايمان . فاذا كانت هذه الاسباب متوفرة في القلة دون الكثرة ، كان لها الغلب على الكثرة . وفيها قال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

ـ رابعا ـ ان السنن الاجتماعية والكونية تتعارض وتتنافى كما تتعارض أسباب النصر والغلب واضدادها في المثل المذكور آنفا ، ومن ذلك تعارض أسباب الصحة واسباب المرض ، وتعارض التأثيرات الجسدية مع التأثيرات النفسية . فما كان له الرجحان يكون مبطلا للآخر [illegible] الوجود الممكن ـ لا علويه ولا سفليه ـ ناموس [illegible] على استحالة تغييره وتبدله ، بل كله [illegible] أو بغير ذلك .

كما يقولون في خراب [illegible] او انقطاع حياتها وعالمها بزوال حرارة الشمس بالتدرج البطيء ، او بتصادم بينها وبين بعض الاجرام السماوية وهو ما تشير اليه آيات القرآن المجيد

السنن والنظام في الخلق خاضعان لمشيئة الخالق

ثم أقول ـ خامسا ـ إن خالق الخلق بما شاء من النظام والسنن لم يقيد بها قدرته ومشيئته ويجعلها حاكمة عليه ، بحيث يكون بها مقهوراً لا قاهراً ، وعاجزاً عن التصرف لا قادراً ، حتى لا فائدة في دعائه والتضرع له . بل دل كتابه ـ الذي لا يفهمه هذا الملحد الجاهل بلغته ، وشريعته ـ انه قيدها بمشيئته ، وان العالم كله في قبضته (إن الله يمسك السموات والارض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده) فهذه الآية صريحة في أن العالم في قبضة تصرف خالقه في كل وقت ، وان بقاءه بقدرته تعالى لا بما يظهر من سنن النظام فانها مفعولة لا فاعلة ، أو ظواهر صورية ، لا حقائق وجودية ، كما قال بعضهم في سنة الجاذبية

ومن هذا القبيل قوله تعالى (ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) لحركات الريح تجري بحسب سنته تعالى في تأثير الحرارة فيها، وهو يقول انه إذا شاء أسكنها

وقد دل كتابه أيضاً على انه تعالى جعل للسنن الكونية والتشريعية استثناء يضعه موضعه بحكمته ورحمته . حتى ان عذاب الأمم المعاندين لرسله والتي نص كتابه على انه لاتبديل فيه ولاتحويل قد دخله الاستثناء بالفعل؛ كما قال تعالى في سورة يونس (١٠: ٩٨ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) فان يونس عليه السلام كان خرج من قومه عند ماجاء موعد ما أنذرهم من العذاب ولم يؤمنوا . فلما رأوا بوادر العذاب وكاد يقع بهم آمنوا فنفعهم ايمانهم فلم ينزل العذاب بهم ، فهذا استثناء من السنة العامة في وقوع العذاب على الاقوام في مثل تلك الحال ، سواء كان متصلا او منفصلا [illegible]

ومما يدل على تقييد السنن العامة بالمشيئة قوله تعالى بعد ماذكر في سورة يونس (٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) وهذه المشيئة انما تكون بخلق البشر على غير هذه السنن المعروفة في خلقهم من اختلاف الاستعداد للايمان والكفر معاً ، ومن ترجيح بعض متعلق هذا الاستعداد على بعض . أو بازالة هذا الاستعداد بعد وجوده . وهو من سنن الله في نوع الانسان

ومن هذا الاستثناء عفو الله تعالى عما شاء من ذنوب عباده في الدنيا والآخرة فان عقاب المذنب من سنن العدل ، والعفو والمغفرة من الرحمة والفضل ، فكل مذنب مستحق للعقاب بحسب سنة الله في تأثير الاعمال في النفس المقررة في قوله تعالى (٩١: ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها) وما كل مذنب يستحق العفو ، وقد اتفق حكماء البشر على أن من الحكمة الاستثناء في القوانين بالعفو عن بعض العقوبات

والآيات المحكمة الصريحة في فعل الله لما يريده وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن كثيرة ، والمسلمون مجمعون على ذلك ، ولكن إجماعهم لاقيمة له عند ملحد دمنهور

ولا يحتج به في دينه ، وقد يعبر عنهم بما يدل على انه ليس منهم كما قال في تفسير (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وهذا نصه :

« ومن الغريب مع هذا الدليل البين ان المسلمين ينقلون في كتبهم ان النبي سحر بناء على حديث رواه اليهود كما ينقل النصارى صلب المسيح بناء على حديث رواه اليهود أيضاً » اهـ فقد أنكر على المسلمين لا على المحدثين ، ويعني بقوله « كتبهم » أصح كتب الحديث وجميع كتب التفسير ، ولكنه كذب في زعمه ان حديث السحر المذكور قد رواه اليهود ، والغرض من ذكر عبارته هنا انه يهزأ بأعظم كتب المسلمين في التفسير والحديث هزؤ الساخر التبري من المسلمين ، وأما تحقيق المسألة فقد بيناه في المنار

(ومنها) قوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهذا المعنى مكرر في القرآن ، وهو ظاهر فيما خلقه تعالى بدون نظام الاسباب ، كخلق آدم من تراب ، وخلق عيسى [illegible] أب

وجملة القول في مسألة سنن الله تعالى في نظام الكون وسنن الاجتماع والعمران ان ما ثبت منها فهو مقتضى حكمته ، وانه غير مقيد لعموم مشيئته وشمول قدرته ، وأن ماثبت في كتابه أو في خليقته من آياته الخالفة المعروف من تلك السنن فهو من تصرفه بمشيئته واختياره ، لحكمة يعلمها في ذلك وقد يعلمها من شاء من خلقه ، كمعجزات رسله عليهم السلام ، فان حكمتها ظاهرة بينها علماء أتباع الرسل أحسن البيان

وان منتهى الجهل والكفر بالله تعالى جعله مقيداً بما يظهر لبعض الناس من هذه السنن مع تخبطهم فيها ، وعدم اتفاق عقلائهم وعلمائهم على ضرورة اطرادها ، وما هذه الارض وسننها إلا كذرة من ذراتها هي في جملتها ومجموعها ، بالنسبة إلى ملك الله العظيم الذي ثبت لعلماء الفلك ان بعض أجرامه يبعد عن البعض الآخر بما يقدر بملايين السنين لسرعة النور ، وهو يقطع نحوا من مائة مليون ميل في زهاء عشرة دقائق . فمن أنت أيها الجهول حتى تبيح لنفسك تحريف كلام الله تأويل آياته في خلقه اغتراراً بما لا تعلم حقيقته من هذه السنن ؟

فاذا كان شيطان الجهل والغرور قد زين للحدد منهور أنه يمكنه أن يكون رجلا عظيما في

الارض بوضع دين جديد لمن غلبت عليهم ظواهر الفلسفة المادية لايوجد فيه شيء مخالف المألوف عندهم فليبعد عن القرآن والانجيل والتوراة والزبور ، فان أديان جميع رسل الله مؤسسة على عقيدة تصرف رب العالمين في خلقه بمشيئته واختياره في كل وقت ، وعلى تأييده لمن شاء من رسله بخوارق العادات ، وسنن الاجتماع والكائنات ، وعلى ان عالم الغيب من الملائكة والجن وغيرهم لايقاس على عالم المادة ، وان الايمان بما ورد الوحي فيه من ذلك كما ورد أصل من أصول الدين لايصح الدين بدونه

عجز فلاسفة أوربة عن وضع دين يخضع له البشر

وليعلم أن بعض فلاسفة أوربة وأعلام الأدب والتشريع فيها قد وضعوا أصولا لديانة سموها الديانة الطبيعية ، ودعوا فيها [illegible] من الفضائل والمصالح العامة والخاصة ما استحسنوه [illegible] ، ولكن لم يتخذها شعب من الشعوب [illegible] الافراد دينا يلتزمه في أعماله وآدابه ، ولماذا ؟

لان الدين الذي يحتاج اليه البشر لتكميل فطرتهم وازالة الخلاف من بينهم فيما يجب عليهم من معرفة الله وعبادته ، ومن أصول التشريع العامة والفضائل الثابتة التي تحول دون الفوضى الدينية والادبية التي تفرق كلمتهم ـ هذا الدين لايمكن أن يتحقق إلا إذا كان مصدره السلطان الالهي الاعلى الذي تذعن الانفس لأمره ونهيه القطعيين لذاته ، سواء وافق آراءهم وأهواءهم ونظرياتهم العقلية وتقاليدهم القومية والوطنية أم لا ، لان صاحب هذا السلطان أعلم منهم بما يضرهم وما ينفعهم ، وهو القادر على إثابتهم إذا اتقوا واحسنوا ، وعلى عقابهم إذا فسقوا وظلموا وأساءوا ، وعلى العفو عنهم إذا تابوا وأصلحوا ، وعلى استجابة دعائهم إذا دعوا وتضرعوا ،

فلو كانت أمور العالم كلها تجري بنظام اضطراري ليس لله فيه مشيئة ولا

اختيار ، لم يكن هنالك محل لثمرة الايمان من الخوف والرجاء ، وهما الباعثان على الطاعة والانقياد ، ولزال معنى الدين وذهب التدين هباء .

الا ان المادية مضادة بل مناقضة لمعنى الدين والتدين ، وقد ظهر بعد الحرب العامة من مفاسدها ما لم يكن ظاهراً ، والعالم المدني قد شعر باضطراره إلى الهرب من هذه المفاسد في العقل والآداب والاجتماع كما أوعدنا بذلك من قبل ، وانما الدين الوسط هو الجامع بين المصالح المادية ، والفضائل الروحية ، كما بيناه في تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلنا كم أمة وسطا) من أول الجزء الثاني من تفسيرنا

وإذا لم يكن لرسل الله تعالى من آياته ما يعجزهم من الفلاسفة والادباء - كما يزعم ملحد دمنهور - فأي باعث يبعث الناس على الانقياد لهم بالاذعان النفسي والوجدان الاضطراري ، وهم يجدون عند الحكماء من [illegible] العقلية والادبية ما هو أقرب إلى مألوفاتهم وفطرتهم مما [illegible] به الانبياء ؟

حكاية ابن سـ[illegible]

ألم يعقل هذا الملحد ما سمعه منا وقرأه في كلامنا غير مرة من نبأ الفيلسوف الكبير الرئيس ابن سينا مع خادمه ومريده المعجب بعلومه وفلسفته المفضل له بها على محمد رسول الله ﷺ الذي كان يلومه على اتباعه هذا النبي ﷺ وهو دونه بزعمه وجهله ، حتى إذا كانا في بعض ليالي الشتاء الشديدة القر القارسة البرد في تبريز ايقظ الرئيس خادمه ليأتيه بماء يتوضأ به ، فاعتذر له بشدة البرد ، وبعد طلوع الفجر ، أيقظه سيده الرئيس عند ما كان المؤذن ينطق بالشهادتين على المنارة وسأله ماذا يقول المؤذن ؟ قال انه يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال قد آن لي أن أبين لك فساد عقلك ، وافن رأيك ، في تفضيلك اياي على رسول الله ﷺ

انك أنت خادمي وقد بلغ من اعجابك بي ما تعلم وهو ما لم أر مايقرب منه من غيرك . ثم انك تكسل عن طاعتي في داخل الدار معتذراً بشدة البرد ، وهذا الرجل الفارسي يشيد بالشهادة لمحمد رسول الله ﷺ بالرسالة في أعلى هذه المنارة حيث البرد على أشده وهو في ذلك محتسب أجره عند الله ، فعند ماترى لي من

السلطان على قلبك مثل ما ترى لمحمد ﷺ على قلب هذا الفارسي بعد مضي أربعة قرون على بعثته تكون معذوراً فيما تهذي به من تفضيلي

وإذا كان من أصول الدين المادي الذي تدعو اليه باسم القرآن انه يجوز لشبه أن يخالف رسول الله ﷺ لترجيح رأيه على طاعته أو لما يراه بالتشاور مع غيره من المصلحة المخالفة له ، فأي معنى يبقى للدين ؟ وكيف تجتمع الكلمة به على ما يكونون به أمة واحدة ؟ أو ليس من الجائز على هذا أن يترك الناس جميع ماجاء به الرسول لمخالفته لآرائهم وما يزعمون من مصالحهم غير المقيدة بدين يتبع لذاته باذعان الايمان ، ولا يستحل صاحبه ترك شيء منه إلا بما ورد النص فيه بكونه عذراً كالضرورات التي تبيح المحظورات ؟

ثم ان هؤلاء الماديين لايجدون أدنى باعث على قبول دين مادي يتوقف إثبات ماديته على تحريف كثير من آيات كتابه عن مدلولها اللغوي الذي جرى عليه جميع أهله من عهد النبي [illegible] باعا الجاهل مغرور في تحريفها وجعلها مادية [illegible] وموقعه منه .

ولا يغرنّ هذا الملحد ان الباطنية قبلوا أمثال هذا التحريف في القرآن من دعاتهم ، فيظن أنه يوجد من يقبله منه ، فإن الذين قبلوا هذا من الباطنية انما قبلوه بعد اقناع الدعاة لهم بأنه بيان الامام المعصوم لمراد الله من كتابه ، بعد اقناعهم بأن هذا المعصوم موجود ، وانه لايمكن فهم مراد الله وجمع كلمة المسلمين على مايرضيه الا منه ، فأنى لك أيها المغرور باقناع الماديين والجاحدين لوجود الله أو غيرهم بامامتك وعصمتك ؟

فان كنت أيها الملحد تعقل أن يتبعك أحد في دينك هذا فلك المشرقي الحكم على أستاذك الذي تبرأ منك ورد عليك ارشاداً لك ، بانه قد اختل عقله فلا يدري مايقول ، وانه بكيدك مع شيخ الازهر، وفي قولك المناقض لهذا ، وفي سبك وشتمك له، مع ادعائك انك عذرته بجنونه وخرفه (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون ٭ وانتظروا انا منتظرون)

التجديد والتجدد والمجددون

(تابع لما سبق)

القضية الاولى

(في حقيقة معنى القديم والجديد، والتجدد والتجديد، والتفاضل بين الطريف والتليد)

الخلق كله جديد ، وانما القديم المطلق هو الخالق عز وجل ، والجدة والقدم في المخلوقات نسبيان ، فكل قديم منها كان جديداً ، وكل جديد سيصير قديماً ، ومن الامثال العامية بل العامة : من ليس له قديم فليس له جديد، وياله من مثل حكيم يفهم منه العلماء ، ما لا تصل اليه مدارك الدهماء ،

والتجدد والتجديد في الكون من السنن الالهية العامة التي هي مصدر النظام في تكويننا ، والتغير والتحول في أطوار وجودنا ، كما عملت عين عملها في آبائنا وجدودنا (ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) فنحن في معمل الكون الاعظم كالماء في معمل الجليد ، كل آن في تجدد وتجديد ، تارة يكون مائعا سائلا ، وتارة يكون بخاراً طائراً ، وتارة يكون جليداً جامداً ، وهكذا عالم المادة كله ، تجدد طبيعي فطري ، وتجديد صناعي كسبي ، تحليل وتركيب ، جمع وتفريق ، هدم وبناء ، نماء وفناء ، وانما يجري ذلك كله في مادة موجودة ذات عناصر معدودة ، قديمة في الخلق لا جديدة ، ذات قوى محدودة تصرفها قدرة غيبية معقولة لا مشهودة ، وهي قدرة الخالق الحكيم عز وجل . فالتجدد والتجديد انما هو في الصور والاعراض ، لا في إيجاد الجواهر والمواد ، ويؤثر عن نبي الله سليمان عليه السلام انه قال : لا جديد تحت الشمس وهو صحيح ظاهر بهذا المعنى . ويقابله مقابلة التضاد قول بعض حكمائنا إن العرض لا يبقى زمانين ، فعلى هذا يصح أن يقال « لا قديم تحت الشمس » ولا تعارض بين القولين ، ولا تناقض بين القضيتين ، فان كل ما تحت الشمس قديم باعتبار وجديد باعتبار آخر

وقد كنت قلت في مقدمة محاضرة في الجمع بين الذكران والاناث في مقاعد التعلم مايصح أن يدل هنا على أنه مقصد لامقدمة وهو:

«التجديد سنة من سنن الاجتماع، كما ان التجدد من مقتضى الفطر والطباع، ومثلهما مقابلهما من المحافظة على القديم، ولكل منها موضع فلا تناقض بينها ولا تضاد، اذا وضع كل منهما في موضعه بغير تفريط ولا إفراط

« من التجدد في نظام الفطرة أن كل أحد يخالف خلق والديه وأخلاقهما بعض المخالفة، ولولا ذلك لم يكن ما نرى من التفاوت العظيم بين البشر، ومن حفظ الاصل مالاجيال من إرثه لها وشبهه بها في بعض صفاتها الجسدية والنفسية، ولولا ذلك لوقع من التباين بين أفراد الناس مايكاد يكون به كل منهم نوعا مستقلا بنفسه

«ومن حفظ القديم في الاعمال والسنة الموروثة ماتقتضيه غريزة التقليد من محاكاة الانسان لمن يعيش معهم [illegible] أجل الشيخوخة، ثم تقليد الجماهير لمن يعتقدون أنهم أعلى منهم علماً أو أعلى مكانة وقدراً، ولولا هذا لما تكونت البيوت والفصائل، والشعوب والقبائل، بما يربط بعضها ببعض من التشاركات في الاعمال، التي تطبع في الانفس ملكات الاخلاق والعادات، فتكون رابطة الوحدة، التي تجتمع بها وشائج الكثرة، فتكون بها الفصائل قبيلة والبيوت أمة

«ومن التجديد في الاعمال البشرية ماتهدي اليه غريزة الاستقلال المقابلة لغريزة التقليد، والميل إلى الاستنباط والاختراع، ولولاه لكانت جماعات البشر كأسراب الطير، ومساكنهم لاترتقي عن خلايا النحل وقرى النمل»

أنواع التجديد والحاجة اليها

التجديد الاجتماعي والسياسي والمدني والديني كل منها حاجة من حاج الجماعات البشرية تقتضي غرائزها واستعداد نوعها، به يرتقون في مدارج العمران، ويصعدون في معارج العلم والعرفان، حتى ان الدين الالهي الذي يستند إلى وحي الرب الحكيم بمحض فضله، لبعض من أعد أرواحهم القدسية لذلك من أصفياء خلقه، قد سار

مع غرائز الجماعات البشرية في ترقيها من طور إلى طور حتى أكمله تعالى لهم بالاسلام، عند ماوصل مجموعهم إلى سن الرشد والاستقلال

«ومع هذا الاكمال يروي لنا المحدثون عن خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، أنه قال « ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه ابو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة . وأشار السيوطي في جامعه الصغير الى صحته ، والمراد بتجديد الدين تجديد هدايته، وبيان حقيقته وحقيته، ونفي مايعرض لاهله من البدع والغلو فيه أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في شريعته اه وموعدنا في الكلام في التجديد الديني والدنيوي القضية الثالثة

هذه حقيقة معنى التجدد والتجديد ، وهي تهدينا الى ان لكل من الجديد والقديم محلا ، وان من الجهل تفضيل أحدهما على الآخر مطلقا ،

المفاضلة بين المتقدم والمتأخر

وأما المتقدم والمتأخر من الناس فقد كانت القاعدة عند أهل العلم والادب منا تفضيل المتقدم على المتأخر ، ولكن القاعدة عند أهل النشوء والارتقاء العكس، وانما هذا وذاك بالنسبة الى جملة أهل العصر ، دون الافراد النابغين الذين قلما تجود بمثلهم الازمان، ومذهب النشوء الاجتماعي ظاهر في الامم في أطوار حياتها وقوتها، بل هو ظاهر في الدين الالهي أيضا ، فقد ارتقت الشرائع الالهية بحسب استعداد البشر حتى كان آخرها وهو الاسلام منتهى الكمال ، فجعل الله رسوله الذي جاء به خاتم النبيين ، وبعثته عامة باقية الى يوم الدين ، وأنزل عليه قبل وفاته (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)

وقد كان بعض الادباء يفضل المتأخرين في بعض الاشياء ، وقد افتتح عنترة معلقته المشهورة بقوله « هل غادر الشعراء من متردم » يعني ان الشعراء قبله لم يتركوا لمن بعدهم قولا يقوله ، ولكنه هو جاء فيها بمعاني لم يسبقه اليها غيره ، وقد عارضه ابن أبي حجلة في تفضيل كتابه (ديوان الصبابة) على ما سبقه في معناه بقوله في خطبته : فان قلت الفضل للمتقدم ، وهل غادر الشعراء من متردم ،

أقول في الخمر معنى ليس في العنب ، وأحسن ما في الطاووس الذنب

وكلمة «الفضل للمتقدم» صارت مثلا في أفواه العلماء والادباء ، ولا أدري أول من قالها هل هو عدي بن الرقاع الشاعر الاموي الذي ضمنها في شعره أم غيره؟ وهذا شيخ صناعة الادب الحريري قد استشهد في تفضيل بديع الزمان على نفسه في مقدمة مقاماته بقول عدي هذا ... ثم رأيناه عقد المقامة السادسة منها لتفضيل الطريف على التليد ونصر المصاميين على العظاميين . وإني أحفظ من عهد طلب العلم عبارته في هذا ولا يخلو ايرادها من إحماض وفكاهة . قال :

«روى الحارث بن همام قال : حضرت ديوان النظر بالمراغة ، وقد جرى به ذكر البلاغة ، فأجمع من حضر من فرسان اليراعة ، وأرباب البراعة ، على أنه لم يبق من ينقح الانشاء ، ويتصرف فيه كيف شاء ، ولا خلف بعد السلف ، من يبتدع طريقة غراء ، أو يفترع رسالة عذراء ، وأن المفلق من كتاب هذا الاوان ، المتمكن من أزمة البيان ، كالعيال على الاوائل ، ولو ملك فصاحة سحبان وائل ، وكان بالمجلس كهل جالس في الحاشية ، عند مواقف الحاشية ، فكان كلما شط القوم في شوطهم ، ونثروا العجوة والنجوة من نوطهم ، يخزر طرفه ، ويشامخ أنفه ، أنه مخرنبق لينباع ، ومجرنز سيمد الباع ، ونابض يبري النبال ، ورابض يبغي النضال ، فلما نثلت الكنائن ، وفاءت السكائن ، وركدت الزعازع ، وكف النازع ، وسكنت الزماجر ، وسكت المزجور والزاجر ، أقبل على الجماعة وقال : لقد جئتم شيئاً إدّاً ، وجرتم عن القصد جداً ، وعظمتم العظام الرفات ، وافتتم في الميل إلى من فات ، وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات ، ومعهم انعقدت المودات ، أنسيتم يا جهابذة النقد ، وموابذة الحل والعقد ، ما أبرزته طوارف القرائح ، وبرز فيه الجذع على القارح ، من العبارات المهذبة ، والاستعارات المستعذبة ، والرسائل الموشحة ، والاساجيع المستملحة ، وهل للقدماء إذا أنعم النظر ، من حضر ، غير المعاني المطروقة الموارد ، المعقولة الشوارد ، المأثورة عنهم لتقادم المولد ، لا لتقدم الصادر على الوارد . الخ

وللشعراء محاورات مشهورة في تفضيل الحبيب الاول أو الحبيب الآخر ، ومن المشهور في الاول قول بعضهم :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقول آخر :

كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل
نقل فؤادك حيث شئت مع الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول

وقول بعضهم في الثاني

محا حبها حب الاولى كن قبلها ... وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

وقول آخر في الرد على مفضل الحبيب الاول ، ولكن جاء بحجة دينية لا غرامية ، وفلسفة دروينية لا عذرية

أكلف بآخر من علقت بحبه ... لا خير في حب الحبيب الاول
أتشك في أن النبي محمداً ... ساد البرية وهو آخر مرسل؟

والعدل في الحكم : أن تقدم الزمان وتأخره لا شأن لهما في المفاضلة بين الافراد ، ففي كل زمان أفذاذ ، فالقديم كان جديداً ، والجديد يعود قديماً ، كما حققنا ، ولله در القائل في ذلك :

قل لمن لا يرى الاواخر شيئاً ... ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثا ... وسيبقى هذا الحديث قديما

وانما التفاضل بين الاشياء والاشخاص يتعلق بذواتها وصفاتها ، ودرجة انتفاع الناس وارتفاقهم بها ، فان كان للمتقدم فضل الابتكار والاختراع ، فقد يكون للمتأخر عنه فضل التحسين والاكمال الذي يتم به الانتفاع ، وقد اشتهر أن كثيراً من المخترعات التي سبق بعض اللاتين أو الانكليز الى كشفها قد أتمها الالمان فكان نفعهم وانتفاعهم بها أعظم

القضية الثانية

(فضل الشيء في مزاياه ودرجة الانتفاع به)

جهل هذه الحقائق أو تجاهلها ادعياء التجديد ، فطفقوا يدعون الى ترك القديم لانه قديم، والأخذ بالجديد لانه جديد ، وربما وصفوا القديم بالبالي لزيادة التقبيح والتنديد ، وان كان على قدمه لاتبلى جدته ، ولا تخلق ديباجته ، ولا تخبو ناره ، ولا تنطفئ أنواره ، كدين الله القويم ، وكتاب الله الكريم (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)

ان تفضيل الجديد لجدته ، على القديم لقدمه ، مكابرة للحس ، وسفه للنفس ، ومصادمة للعقل ، وهو باطل ببداهة الرأي ، واجماع كل قبيل وشعب ، فان من القديم ماينافس فيه خواص الناس في أرقى أمم الحضارة ، فيباع بالالوف الكثيرة من الجنيهات ، إما لقدمه و [illegible] ، وان هذه البلاد لتفاخر جميع بلاد الحضارة بآثارها [illegible] حضارتها الطريفة ، وانك لترى قصور الملوك والقياصرة وكبار الامراء والاغنياء مزينة بالصور التي رسمها قدماء المصورين ، كما ترى على جدرانها دون أرضها أنفس السجاجيد العجمية والشيلان الهندية القديمة

وانك لترى دور الآثار العادية تتغالى في شراء هذه الآثار كما ترى خزائن الكتب العامة والخاصة تتغالى في شراء الكتب القديمة لكبار العلماء المتقدمين . وان علماء هذا العصر في الغرب يشهدون لكثير من قدماء الحكماء والعلماء والشعراء بالفضل ، ويعترفون بأن منهم من لا نظير له في هذا العصر ولا شبيه

وأما الانبياء ، وكبار القديسين والاولياء ، فلا يزال السواد الاعظم في بلاد الحضارة العصرية يفضلهم على جميع العلماء والحكماء المتقدمين والمتأخرين ، ويعترف بما امتازوا به في أنفسهم وفي هدايتهم ، بل لا تزال مئات الملايين من شعوب أوربة وأمريكة تعبد واحداً منهم ، فأين تذهبون يا أدعياء التجديد الالحادي ؟ وما شأن

من تقلدون من ملاحدة الافرنج الأفذاذ مع العلم بالنهضة الدينية الجديدة في أوربة وأمريكة التي أثارتها الحرب الاخيرة ؟

وإن كان كل جديد يحمد ويؤثر لجدته فماذا تقولون في هذه السموم الجديدة المخدرة الاعصاب، بل المفسدة لصحة الاجساد، المتلفة لسرج العقول، التي يوشك أن يهلك بها هذا الشعب، اذا لم تنجح حكومته فيما سعى اليه حكمدار العاصمة لدى عصبة الامم من صد تيارها ، وقطع الطرق الخفية على تجارها، ومن تقليل ما تصدره معاملها في أرقى بلاد أوربة في هذه المدنية المادية الفاسدة المفسدة

وأما أحدث نظام جديد للحكومات العصرية فهو النظام البلشفي الذي ترتعد منه فرائص دول الارض، وانما يتمنى له النجاح والانتشار بعض المتململين من إرهاق دول الاستعمار لهم ، ولكن غلاة التجديد الالحادي معجبون به ميالون اليه ، ولولا عقاب الحكومة لصرحوا ببث الدعاة له . ولو لم يكن من فوائده عندهم إلا هدم هداية الدين [illegible] أصول الشرائع الالهية لكفى

القول الحق الفاصل في الجديد والقديم

والقول الحق في الموضوع أنه لابد للبشر في كل عصر من القديم والجديد، وان في كل منهما الحسن والقبيح ، والنافع والضار، وان من الناس من هو أميل بطبعه الى هذا ومن هو أميل الى ذاك من اجناس الاشياء وانواعها، وقلما يفضلها لمحض جدتها إلا الاطفال، ومن على مقربة منهم من النساء والرجال . وأما العقلاء المستقلون فلا يرغبون عن النوع القديم الى الجديد الا بمرجح يرجحه عليه عملا بالقاعدة المنطقية في المتساويين . وانما تكون الجدة مرجحة في جزئيات النوع الواحد اذا كانت متساوية في سائر صفاتها ، فان الجديد يكون أزهى وأبهج وأثبت وأبقى . فمثال الجنس من الاثاث والماعون سرر النوم، ومثال النوع منه في المادة ذوات المعادن المختلفة ، وفي الشكل ذوات العمودين وذوات الاربعة الاعمدة . وجزئيات النوع منها افراده ، والعاقل لا يختار شيئا منها لمحض جدته، انما يرجحه بسبب من أسباب الارتفاق والانتفاع به ، إما في ذاته وإما في أمر خارج عنه ، كالاقتصاد واللياقة والوطنية والقومية .

من مُثُل ترجيح القديم على الجديد الذي هو خير منه في نفسه وفي الارتفاق والانتفاع به وراء المال المعروفة من رخص الثمن وعلائه ومراعاة قدرة المقتني المالية — أن في دار الصناعة البحرية الانكليزية آلات بخارية لثقب حديد المدافع وغيره قد حدث بعدها آلات من نوعها تدار بالكهرباء هي خير منها قوة وسرعة ونظافة — وربما كانت اقل نفقة أيضا — وهم لايستبدلونها بها لان في استبدالها بها نفقة عظيمة لاتفي بها منفعتها . حدثني الدكتور يعقوب صروف انه رأى هذه الآلات وان الدليل الذي كان يطوف به هنالك قال له ان اليابانيين تعلموا منا صنع هذه الآلات في عصر الكهرباء فجعلوا آلاتهم كهربائية فكانت خيراً من آلاتنا هذه. وان بقاء حاجتنا اليها لايبيح لنا بذل النفقة الكبيرة التي يتقاضاها تغييرها

ترجيح ماهو وطني أو قومي على الاجنبي

وأما ترجيح كل ماهو وطني وقومي على غيره من جديد وقديم فهو ركن من أركان الحياة الاقتصادية والسياسية والأدبية عند جميع الامم الحية ولا سيما الانكليز الذين راعهم رواج المصنوعات الالمانية في بلادهم لرخص ثمنها، فألفوا عدة جمعيات للبحث في أسباب الأمر هذا . وقد سألت في بعض صيدليات برلين ومونيخ عن علاج افرنسي من العلاجات التي أحملها في السفر ، وأقتنيها في الحضر ، لعروض الحاجة اليها لجأة في بعض الاوقات ، فكان الجواب في البلدين واحداً وهو « هذا لاتيني ، هذا لاتيني » لم يقولوا انه غير موجود بل ذكروا سبب ذلك وهو انه من صنع اللاتين لا من صنع الجرمان . ثم استبدلت به علاجا ألمانيا خيراً منه فيما وضع له . ولو وجد علاج مصري أو عربي يقوم مقامهما لفضلته عليهما

بمثل هذه القومية والوطنية ارتقت شعوب الغرب بأبنائها البارين بأقوامهم ، المعتزين بأوطانهم ، فهم يفضلون كل ماهو لهم من صناعة وتجارة وتشريع وغير ذلك من مقومات الامم ومشخصاتها على ماهو لغيرهم ، فأحكام قضاة الانكليز القدماء وقرارات ندوتهم من أصول التشريع عندهم ، يحافظون عليه أشد من محافظتنا على الاحكام التي نؤمن بأنها منزلة من عند الله تعالى . بله الاحكام الاجتهادية التي

استنبطها أئمتنا من نصوص شريعتنا وقواعدها . وقد سبق أسلافنا الافرنج إلى الاعتزاز بما لهم من تشريع وغيره في صدر الاسلام . ومن ذلك ما وقع لعمر (رض) مع معاوية لما جاء الشام لابسا مرقعته مرتحلا ناقته، إذ قال له معاوية: يا أمير المؤمنين ان أهل الشام قد اعتادوا ان يروا حكامهم في ملابس فاخرة فهم لايهابون من يكون متبذلا في لباسه وزيه، فقال له عمر (رض) نحن جئنا لنعلمهم كيف نحكم، لا لنتعلم منهم كيف يحكمون

ومن ذلك أمره (رض) لقواده وعماله في بلاد الاعاجم بالتزام الزي العربي. فقد كتب الى عامله في بلاد العجم (عتبة بن غرقد) كتابا ينهاهم فيه عن زي الاعاجم ويأمرهم بالمحافظة على عاداتهم العربية، ومما قاله في كتابه: تمعددوا - أي تشبهوا بجدكم معد ابن عدنان في شدته وبأسه وخشونة معيشته - فالمعديون في العرب كالاسبرطيين في الاغريق - تمعددوا واخشوشنوا وابرزوا واقطعوا الركب (أي ركاب الخيل) وارموا الاغراض [illegible] وإياكم وزي الاعاجم الخ وقد حفظ العرب [illegible] التي فتحوها ماداموا متمسكين بهذه الوصايا وغيرها من مقوماتهم ومشخصاتهم ولاسيما [illegible] دينهم، فكانت الامم تندغم فيهم وتتعرب وتسلم، ومن تركها منهم ذاب واندغم في غيره من الشعوب

وقد قلد الافرنج أجدادنا في هذه السيرة ولاسيما الانكليز، وأدعياء التجديد الالحادي يحاولون اقناعنا بان ننسلخ من ذلك كله حتى أحكام الميراث التي خالف الانكليز فيها جميع شرائع الامم كحيازة أكبر الذكور من الاسرة لجميع ما يتركه أبواه من العقار دون سائر اخوته من بنين وبنات

احتقار الملاحدة والقبط للمسلمين بدعوتهم الى ترك شرعهم

وأما نحن المسلمين في هذه البلاد فقد بلغ من احتقار أدعياء التجديد لنا أن يجهر الملاحدة والقبط بها على أعواد المنابر في المدارس الجامعة بدعوتنا إلى ترك ديننا وشريعتنا كلها، لا إلى ترك أحكام الارث وحدها، ذلك بأنهم احتجوا علينا بان الحكومة تركت أحكام شريعتنا في كذا وكذا من العقوبات والاموال فسكتنا لها وقبلنا حكمها، فيجب علينا اذا أن نترك سائر ما شرعه الله لنا من الاحكام

الشخصية في الارث والزواج والطلاق ، إذ لافرق عند هؤلاء الفتين المجددين بين النوعين من أحكام الشريعة

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

بل لم يقفوا عند هذا الحد من احتقارنا بالطعن في شريعة الالهية الزاهرة العادلة الكاملة البيضاء ، من أعلى المنابر ، وعلى صفحات المجلات والجرائد ، حتى زعموا أن جميع شباننا المتعلمين أو سوادهم الاعظم يوافقهم في آرائهم ، ويدين لهم بالزعامة في تجديدهم ، بل استخف بالمسلمين أجرؤهم على الجهر بالسوء فيهم وفي دينهم " فطفق يشتمنا ويشتم كل من يدافع عن الاسلام في مصر وفي غيرها وهو من غير أصلاب الفراعنة آلهة المصريين الاقدمين ، التي وجب علينا في تجديدها أن نرجع إلى مدنيتهم وإن مرت عليها ألوف السنين ، وبخص الكتاب السوريين المسلمين بالقدح والتفريق بينهم وبين المصريين ، والمدنية الفرعونية الوثنية لاتنافي التجديد المطلوب لمصر عنده ، وإنما تنافيه الشريعة [illegible] عنان بالبيان بزعمه وزعم حزبه . وصرح في آخر مقال نشره في هذا الموضوع بأن النعرة الدينية التي انتصرت بها مجلة المنار على مجلة الجامعة فقتلتها « فكان الشباب المصري هو الخاسر بذلك » قد زالت في هذه الايام بزوال سذاجة البلاد التي كانت « تجوز عليها هذه الاوهام » وحاول في هذه المقالة أن يجهز على هذه الاوهام الاسلامية ، بتحريك النعرة الوطنية المصرية الفرعونية ، التي تأبى دخول آل الرافعي في جنسية مصر ، ولعل تاريخهم فيها يقارن تاريخ بيت الملك ، وينفي بالاولى جنسية هذا الواقف بين أيديكم أيها السادة لان تاريخ هجرته اليها لايزيد على ثلث قرن ، وهو يحرم عليكم قراءة مجلته المنار الاسلامي بل السماح ببقائها في

«١» هو شاب قبطي اسمه سلامه موسى شديد الشنآن للاسلام والطعن فيه من طريق الالحاد والاباحة والعصبية الوطنية الفرعونية أي القبطية . ولم أذكر اسمه في المحاضرة تنزها عن الاشادة باسمه ـ ومن غريب المشاكلة في الالحاد ان صاحب مجلة عربية من بيت كريم في سورية جاء مصر فكان هذا القبطي وبعض قرنائه الملاحدة محل مودته وإعجابه وما زال ينوه بهم في مجلته

مصر إذ يقول في آخر هذه المقالة : فلنفهم واجبنا ولنعلم أن الوطن خالد ، وأن شيوخنا وشباننا مصريون قبل كل شيء ، عليهم واجب محتوم يقاضيهم إياه شرف البلاد . وهو أنه يجب أن تكون الصحافة المصرية صناعة مصرية لا تنحصر مصريتها في أن يكون قراؤها مصريين . بل يجب أن يكون أصحابها ومحرروها مصريين أيضاً » اه بحروفه .

ولهذا الجدد الذي كان أول داع إلى مساواة النساء بالرجال في الميراث في العهد الاخير من مجلته هذه دعاية جديدة إلى بث دين البابية البهائية في مصر مع تصريحه بانه لا يؤمن به وتعليله ذلك بقوله « فان لنا من المزاج الادبي القلق ما يجعلنا نلتمس لأنفسنا صوفية عالية بغير الدين » (ولكن غرضه من الدعوة اليها صرف بعض المسلمين بها عن الاسلام لاختلاف ماهيته الخالدة دون جعل مصر فرعونية اي قبطية محضا . ولم أصرح بهذا التعليل في المحاضرة)

أيها السادة

اني أذكر هنا لابد من موضوع التبشير والمبشرين الذي نعالجه لبيان حقيقته ، والتمييز بين حقه وباطله ، ومحاولة اتقاء ضرره ، كما قدمت في أوائل هذه المحاضرة ، فأنا أمر به وقذفه كريما بسلام كما الله أمر في القرآن [1] واتقي قول

---

(١) اشارة الى قوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وقوله بعده (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقد فهم الجمهور من الآية الاولى أن فيها إشارة لطيفة لاسم سلامه هذا . وقد صرحت في المحاضرة بزيادة عما هنا ومنها طعن هذا القبطي بالامير شكيب أرسلان لدفاعه عن الاسلام ونبزه بلقب « وغد » وقلت إن الوغد في اللغة هو الدنيء ، من الرجال الذي يخدم بطعام بطنه . والامير شكيب نابغة بني أرسلان ، من سلائل ملوك العرب وأمرائهم من قبل الاسلام ، وهو يعيش في أوربة مع أهل بيته عيشة الكبراء ، ويزوره في داره ويأكل طعامه الملوك والامراء والوزراء . (وازيد الآن في هذه الحاشية أن ممن ضافه داره في لوزان ملك الافغان السابق وخديو مصر السابق وغيرهما وآخرهم جلالة ملك العراق ومن كان معه في أوربة من وزرائه وحاشيته في صيف هذا العام)

رسول الله ﷺ « المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان » رواه الامام احمد والبخاري في الادب المفرد . ولا أريد أن أخوض مع الخائضين ، في مسألة القبط والمسلمين ، والعرب والفرعونيين ، وإنما غرضي أن أنبه هذا الشباب المصري الاسلامي لما يتنازعه في دينه ولغته وثقافته من عوامل الالحاد والفرعونية ، برقيق التجديد والوطنية ، لتجريده من هداية دينه وأدبه وتشريعه وعربيته وماله في الاسلام والعربية من تاريخ مجيد ، وماله باسلامه وعربيته من زعامة في مئات الملايين من البشر ، لتكون غاية ذلك أن يصير مسلمو مصر بنفوذ شبانهم ملاحدة حائرين ، يتلمسون صوفية علمية بغير الدين ، يتكلفون لمسها وهيهات أن يجدوها ، أو يكونوا بابيين يعبدون البهاء دفين عكاء ، أو نصارى كسادة وطنهم من القبط وأعوانهم يعبدون المسيح عليه السلام

وكل هؤلاء الدعاة إلى التجديد الالحادي يعتقدون أن هذه هي العاقبة الطبيعية للالحاد ، [illegible] كتاب جديد له رددت عليه في المنار . قال ما خلاصته إن تنصير المسلمين تنصيراً مباشراً من المحال ، وإنما الطريقة المثلى لذلك افساد دينهم عليهم بالالحاد ، ولما كان من المحال أن تعيش أمة بغير دين كانت العاقبة بعد زوال كل أثر للاسلام من أنفسهم ، أن يختاروا دين الغالبين السائدين فيهم وفي غيرهم ، وهو النصرانية

وقد رأيتم في هذه الايام كيف جدد الاستاذ عزمي دعوة الاستاذ سلامه موسى إلى نبذ حكم القرآن في الميراث وكيف قام الدكتور لحري يعزز هذه الدعاية ، وسمعتم وقرأتم ما يحتجون به على المسلمين ويقنعون به شبانهم الغافلين ، مما يراد بهم . وهو ان ترك الحكومة من قبل لبعض أحكام الاسلام المدنية والجنائية يوجب عليهم أن يتركوا سائر أحكامه حتى المسائل الشخصية (لها بقية)

---

(١) كان بعد هذا ان دعتني لجنة الخطابة والمناظرة في الجامعة المصرية الى مناظرة في المفاضلة في هذا الموضوع (المفاضلة بين المدنيتين العربية والفرعونية) فكان لي الفلج بترجيح العربية على الفرعونية وتقدم ذكر هذا في المجلد الماضي من المنار (٣١)

المناظرة بين أهل السنة والشيعة

قد اطلع قراء المنار في الجزء الثامن (م ٣١) على الكتاب الذي نشرناه للعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين من أشهر علماء الشيعة الامامية في هذا العصر الذي يطلب المناظرة – وعلى اجابتنا إياه الى طلبه وما اشترطناه فيها ، وقد جاءنا بعد ذلك الرسالة الآتية منه فاذا هو لم يلتزم فيها الشروط فكان لنا أن نطلب منه حذف ماليس من الموضوع الذي حددناه وان كان يمت اليه بنوع من انواع القرابة او المناسبة ، واذا يظن في الظنون ، و يفتح له باب من النقد يقبله الكثيرون .

والى أشير له هذه الرسالة على كون أكثرها خارجا من دائرة الموضوع ، ومنتقدة من عدة وجوه ، و إعلانا عن كتابه بالاحالة عليه و بيان موضع بيعه ورخص ثمنه .

ولكنني أعلق عليها تعليقا وجيزا اعود فيه الى تحديد موضوع المناظرة ولا أقبل بعده كلمة تخرج عن حدودها وهذا نص رسالته

﴿ الرسالة الأولى للعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد جرت مناظرة بيننا وبين الاستاذ العلامة الامام حضرة صاحب مجلة المنار الغراء ونال كل منا صاحبه بما جرحه فرأينا أن ذلك يحول دون الغرض الذي يؤمه أهل الدين والعقل من احقاق الحق وحل الضالة المنشودة لهم فكتبت اليه راجياً منه فتح باب في المجلة تذكر فيه المسائل الهامة بين الطائفتين ورأي كل منهما ودليله

فحقق رجائي وكان عند حسن ظني وأتحفني بكتاب ملاء حنانا وغيرة على الدين وأهله ، ولا عجب إذا جاء الشيء على أصله وخرج الجوهر من معدنه

وأرجو ببركة هذه المجلة ونية صاحبها أن نقف على فوائد جمة ونهتدي إلى كثير مما خفي علينا علمه ومعرفته ، فنحن بلسان أهل الحق والفضل نشكره شكراً جزيلا

ودع عنك قول بعضهم دعوا البحث فيما يتعلق بالدين والمذهب وهلم إلى التعاون على توحيد الكلمة وجمع الأمر قبالة المستعمرين

فان ذلك لغو من القول وخطل من الرأي و كأنها مقالة من لايرى الاسلام

دينا، ولا يرى ان هناك حياة أخرى خالدة غير هذه الحياة، وانما يرى الاسلام رابطة قومية وجامعة سياسية فهو يدعو اليها ويحض عليها وهذه الدعوى لاتجدي نفعا عند من يرى الاسلام دينا ويتقرب إلى الله سبحانه بنصرته ومعاداة من يعمه بسوء.

فالدواء الناجع إذا لتوحيد كلمة المسلمين وضمهم تحت لواء واحد هو سعي عقلاء العلماء (أي علماء الدين) من كلتا الطائفتين إلى محل الخلاف وفحصه وازالته بالبرهان واصغاء كل منهما لحجة الآخر وتحكيم أهل الفضل والانصاف، ولا ينبغي وضع هذا العبء على كاهل العلماء فحسب

بل على العقلاء ممن يهمهم أمر المسلمين القيام مع العلماء مراقبين سيرهم في المناظرة فان الحق لايخفى على طالبه، واني لا انكر أن يكون في علماء الطائفتين من تهمه نفسه ولا يميل إلى الاتفاق لما اعتاده من التعصب الاعمى فعلى العقلاء من كلتا الطائفتين رفض اولئك والتنبه لهم

وليت شعري كيف [illegible] قبل دفع سبب الخلاف

ان الشيعة من المسلمين يرون ان من أرسى قواعد الاسلام وأقوى دعائمه موالاة أهل البيت والاهتداء بهديهم والعمل برأيهم وحديثهم، وان المنحرف عنهم النابذ لحديثهم المهتدي بخلاف هديهم غير متبع سبيل المؤمنين، ويرون ان أبناء السنة من المسلمين منحرفون عنهم بنبذهم علمهم وحديثهم واعراضهم عن مذهبهم فهم على غير سبيل المؤمنين

وان المسلمين من أهل السنة يرون ان أرسى قواعد الاسلام واوثق عراه موالاة أصحاب رسول الله جميعهم والعمل بكل ماحدثوا به لانهم حملة الدين وحفظة الوحي ومبلغوه إلى الامم والمنحرف عنهم التارك لحديثهم غير متبع سبيل المؤمنين، ويرون ان الشيعة منحرفون عن أصحاب رسول الله ﷺ لتركهم حديثهم وانقطاعهم الى أهل البيت فهم على غير سبيل المؤمنين

فعلى هذا كيف يشترك المتمسكون بالدين منهما بالعمل باخلاص ونصح مالم يقع التفاهم بينهم ؟

فلو أن شخصين متعاديين سارا في طريق واحدة لم يجدهما نفعاً إظهارهما المجاملة وقول كل واحد منهما لصاحبه: دع العداء بيننا جانباً وهلم فلنكن يداً واحدة على من سوانا. فان ذلك غير مستطاع لهما، واعتمادهما في التعاون على ما أظهراه من المجاملة والاتفاق غرور وأمان باطل، فلو ظفر بهما عدو لهما على هذا الحال تم استمان بكل واحد منهما على صاحبه لأعانه

فعلى هذين الرفيقين أن يقتلعا سبب العداء من عروقه ويعترف كل واحد منهما لصاحبه بحاجته ويعطيه يده ليأخذ بحقه حتى يرضى، وعندها تذهب الشحناء ويحل محلها الود والاخاء.

أما أنا فهذه يدي رهن بما أقوله معطاة لمن يريدها وما توفيقي إلا بالله

(علم علي وعمر (رض) بالدين والقضاء)

ذكرت مجلة الشبان [illegible] أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه [1] وردته مجلة [illegible] ﷺ «أقضاكم علي» وقوله «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وقول عمر: «لولا علي لهلك عمر»، ولا بقيت القضية ليس لها أبو الحسن. ورد الاستاذ العلامة صاحب المنار في الجزء الرابع من المجلد ٣١ ص ٢٩٥ هذه الأدلة وعنون المسألة بهذا العنوان

وحاصل الرد أن ما روي عنه ﷺ من الحديثين غير صالح للاستدلال به لعدم صحة ما روي وعلى فرض صحته لا دلالة فيه على المطلوب اذ كون علي أقضى لا يمنع أن يكون عمر أعلم لأن القضاء أعني فصل الخصومة لا يحتاج الى كثير علم [2] وانما يحتاج الى ذكاء وفطنة فبين الأعلم والأقضى عموم وخصوص من وجه. وكذلك جعل علي (ع) باب مدينة العلم لا يوجب الحصر لجواز أن يكون للمدينة ابواب كثيرة منها علي (ع) ومنها عمر (رض) ومنها غيرهما. وكذلك قول عمر انما جاء على نحو التواضع. ثم أطال البحث في احوال رواة هذين الحديثين وتضعيفها

(١) المنار: الصواب ان مجلة الشبان المسلمين نشرت مقالا في عمر (رض) فيه كلمة بهذا المعنى ولم يكن هذا موضوع المقال (٢) لم نقل انه لا يحتاج الى كثير علم

أقول : ما أحسن المناظرة اذا كانت بآدابها ، وصحت نية أربابها وكان الحق ضالتهم ، والبرهان قائدهم

والتغضي عما في هذا الجزء من الشتم والتجهل كما تضمنته رسالة ابن تيمية ، ومقالة الاستاذ التي عنوانها (السنة والشيعة وضرورة اتفاقهما) فانها كتبت قبل الصلح والمسالمة . وقبل الخوض في البحث نقدم بيانا يعلم منه مناظرنا كيف يسير معنا في المناظرة

رأي الشيعة في الخلافة

ان المسلمين من الشيعة يرون أن الخلافة أصل من اصول الدين كالنبوة وان نصب الخليفة واجب على الله عقلا من باب اللطف كوجوب إرسال الرسول ويرون ان الخليفة لابد أن يكون أكمل اهل زمانه في جميع فنون الفضل كالنبي وان امتاز النبي ﷺ عن الخليفة عندهم بأمور كثيرة . ويرون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ هو علي [illegible] أفضل أهل زمانه

رأي السنة في الخلافة

ان المسلمين من السنة لايرون الخليفة بهذه العظمة فهي عندهم فرع من فروع الدين فيجب على المسلمين ان يختاروا من بينهم خليفة ولا يشترطون امتيازه عن غيره في الفضل والصلاح ولعل أكثرهم لايشترط فيه الصلاح والعدالة

فاذا عرفت ذلك ظهر لك ان الشيعة حين ينكرون ان يكون احد من الصحابة أفضل من علي (ع) او مساويا له انما هو لمنافاته لأصل الدين وقاعدة المذهب عندهم وقد فرغوا من اثباته بالحجج القاطعة والبراهين العقلية والنقلية وألفوا في ذلك الكتب المطولة ، فمن يجهل رأيهم في الخلافة ولم يطالع ما كتبوه في ذلك مع وفوره وقرب مناله يظن أن ذلك منهم غلو في علي وانحراف عن غيره وليس كذلك

إن العالم الشيعي ينظر إلى التفاضل بين علي (ع) وعمر (رض) كأهم مسألة دينية والعالم السني ينظر إلى التفاضل بينهما كمسألة تاريخية ، وحيث كان البحث في التفاضل من الوجهة الدينية يحتاج إلى البحث في أصل الامامة وهي مسألة ضافية الذيل فسيحة الارجاء لا تسعها هذه العجالة فلنبحث الآن عنها من الوجهة التاريخية ونعرض

ماعندنا في ذلك على أهل الفضل والانصاف

اني وأيم الحق لم يكن يختلج في صدري ان أحداً من أهل الفضل يقدم أحداً من الصحابة على علي (ع) في العلم أو يساويه فيه ، وكنت أرى أن هاتين الصفتين أعني الشجاعة والعلم قد كملتا فيه وامتاز بهما عند أوليائه وأعدائه ، وان صفة العلم فيه أظهر من صفة الشجاعة لسبقه فيها سبقا بعيداً

هذا كتابه قرآن العارفين وفرقان السالكين تتجلى آياته وتتلألأ أسراره ، وما أخال حضرة الاستاذ يرتاب فيه كثيره بعدما أورده أستاذه ذلك الحبر الكبير النحرير المقب من مشاربه ، وأوقفه على تلك الالاهيات من عجائبه

اننا لعمر الحق أبعد المسلمين عن العصبية ، وأقربهم للاتفاق ، وأحبهم للانصاف ، وما الحيلة في ترك ولاء هذا الرجل (أعني أمير المؤمنين علياً) وقد تجلى لنا تقدمه في الفضل على كافة أصحاب رسول الله ﷺ وسبقه لهم فيه سبقاً بعيداً ، وانا لنعجب لبعض العلماء من اخواننا السنيين كيف لاينصفوننا في علي (ع) ولا يروون [illegible] فيه ، وما [illegible] هذا الفضل له أخذناه منهم ، ورويناه عنهم

فمن عدم انصافهم ماذكره هذا البعض من ان عمر أعلم الصحابة ومنهم علي (ع) وهنا موقف الحيرة فان سكتنا كان ذلك اقراراً منا بالخطأ وفساد المذهب وان أوضحنا الحق في المسألة ونصرناه رأينا قامت القيامة علينا ورمينا بالرفض والغلو والتعصب على أكابر الصحابة

لكننا نؤثر احقاق الحق ونحتمل في سبيله كل مكروه ولعلنا لانعدم من اهل الفضل والانصاف أنصاراً ومحكمين

اعلم أيها الاخ المنصف ان لنا على تفضيل علي على عمر (رض) وعلى كافة الصحابة (رض) براهين قاطعة من طريق العقل ومن طريق الرواية أما من طريق العقل فيحتاج ذلك الى معرفة الزمان الذي تلقيا فيه ذانك التلميذان المفلحان (أعني عليا عليه السلام وعمر رضي الله عنه) العلم عن معلمهما أعني رسول الله ﷺ ومقداره ومنزلة كل واحد منهما من الفطنة والذكاء ، وعندها تصدر الحكم غير مرتاب

زمن اسلام عمر رضي الله عنه

أسلم عمر رضي الله عنه في السنة السادسة من بعثته ﷺ وعمره ست وعشرون سنة فعليه يكون قد قطع مرحلة من عمره في غير طلب العلم لا يستهان بها فاذا أضفت اليها ثلاث سنوات لم يلق عمر فيها رسول الله ﷺ الا نادراً وذلك عند حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب في شعب ابي طالب رضي الله عنه تراه قد خسر أكثر رأس ماله الذي يتجر به الانسان في كسب العلوم والمعارف وذلك ظاهر

لان الزمان الذي يستفيد منه المرء ويتعلم به هو زمان الصبا والشبيبة وبها تكون القوة الذاكرة والحافظة في منتهى النمو والنشاط والاستعداد لتلقي العلوم والمعارف

وما سمعنا بمن طلب العلم عند بلوغ هذا السن أعني تسعا وعشرين سنة وبرع فيه وان كان ثمة أحد فهو من شواذ الطبيعة ومنكر ذلك مكابر وحائد عن طريق الانصاف

خصوصا في الصدر الاول أعني زمن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فقد كان الاعتماد على الحفظ والذاكرة ولم تكن يومئذ المعلومات تدون ليؤمن تفلتها وضياعها فكان أعلمهم أكثرهم حفظا وأقواهم ذاكرة ولولا حرص التابعين على حفظ الحديث وتدوينه لما وصل الينا من علمهم شيء

ولقد كنت زمن شبيبتي أتعجب من كل من يقول نسيت فاني لم أكن لأنسى شيئا سمعته او قرأته وبعد بلوغي الثلاثين انقلب الامر وأصبحت أعجب ممن يحفظ ولا ينسى ولم يبق في ذاكرتي غير ما استودع بها زمن الصبا والشبيبة وما شكوت هذا الداء لاحد من أبناء جيلي الا وشكا لي نفس ذلك الداء الذي أشتكيه

ويؤيد ذلك ما روي في سيرة عمر رضي الله عنه انه لبث في حفظ سورة البقرة وتعلمها اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا (١)

---

(١) روى ذلك العلامة المتبحر عز الدين بن أبي الحديد في شرح النهج جزء ٣ صفحة ١١١ وهذا الكتاب جليل القدر جم الفوائد يدل على غزارة علم صاحبه وتقدمه في كثير من فنون الفضل ولا سيما الحكمة والكلام والتاريخ والحديث والادب وهو شديد الولاء لعمر رضي الله عنه طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٣٢٩

ولم يكن عمر رضي الله عنه يعرف بالصحبة لرسول الله ﷺ والاتصال به قبل اسلامه ليستفيد من علومه

زمن تعلم علي عليه السلام

لايرتاب أحد ممن راجع أحوال الصحابة وقرأ تاريخ حياتهم في ان رسول الله ﷺ ضم عليا اليه وأخذه من أبيه وهو ابن أربع سنوات (١)

وهذا هو اول الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتعلم مبادىء العلوم وتلقي بذور الاخلاق الطيبة والطباع الفاضلة ، ويا ما أسعد ذلك الغلام الذي يظفر بمثل ذلك المعلم في مثل ذلك الزمان وينقطع اليه عن أبيه وأمه واخوته وكل أبناء جيله ثم لايفارقه مدة حياته بخ بخ لهذا الغلام

ومن يستطيع تحديد ما استفاده ووعاه قلبه وانطبعت عليه نفسه من العلوم والاخلاق وقف القلم ههنا بعد تخوته معترفا بالعجز عن هذه المهمة من التحديد فأين ربانيو هذه الامة وراسخوها في العلم ليعينوا على تحديدها وبيان مقدارها ؟

مل بنا نحو تلك الخلوات التي كان يخلو بها مع معلمه ﷺ قبل بعثته .

كان رسول الله ﷺ قبل بعثته قد تيمه الوجد وأورثه ذلك وحشة من الناس ، وأنسا بالخلوات والانقطاع عن هذا الخلق التعوس المتردد في دياجير الجهل والشقاء ، النائي عن الخير والسعادة ، فكان يجاور في كل سنة بحراء ومعه هذا الغلام

(١) ذكر الامام الحافظ ابن حجر في الاصابة صفحة ٥٠٤ ان عليا ربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه وكذلك كافة المؤرخين ممن عرفناهم كالطبري وابن الأثير وابي الفداء وقد أشار عليه السلام الى ذلك بخطبته التي تسمى بالقاصعة بقوله وقد تعلمون موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمني الى صدره ويكنفني فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ شيئا ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل وكنت أتبعه اتباع الفصيل إثر امه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري الخ وقد أشبعنا ذلك بيانا في الجزء الاول من كتاب السكلات ص ٤١ فمن شاء فليراجعه ويطلب من ادارة العرفان من صيدا بقيمة زهيدة

الشهرين والثلاثة ويض تلك النفس الزكية ويؤهلها لوصل ذلك الحبيب الذي هام به

وكان علي عليه السلام يهيم بذلك الحبيب كهيام معلمه ويشاركه في خلواته به وانسه بقربه وتلقي فيوضاته وألطافه لاتلاك لها

فأين الاصحاب رضي الله عنهم عن تلك المراتب السامية من هذه المكاشفات والمشاهدات لخالقهما التي كانت تتجلى في قلبيهما وتتلألأ على طورسينا نفسيهما ولا تعجب بعدها من أمر هذا الغلام كيف فارق أهله واخوته واترابه وانقطع الى معلمه ولم تمل به الحداثة الى الاخذ بنصيبه من اللعب واللهو وهو منتهى لذة الاحداث وقصارى رغبتهم

فلقد ملىء قلبه بحب خالقه ولم يبق فيه فراغ لسواه فسبحان واهب العطاء يختص بكرامته من يشاء ، أتظن رعاك الله أن ساعة من الزمن كانت تمر على هذا التلميذ بغير فائدة من ذلك المعلم الحريص (١) على التعليم

فلو ادعى مدع [كهذا التلميذ بعد مواظبته انه وارث] علمه أتكون دعوى غلو ومجازفة ام دعوى [حق وانصاف]

وقد تبين مما ذكرنا ان عليا عليه السلام تعلم العلم من رسول الله ﷺ زمن الصبا والشبيبة بخلاف عمر رضي الله عنه وان عمر ابتدأ بالتعلم من رسول الله ﷺ مع علي بعد أن سبقه وتعلم قبله بخمس عشرة سنة على أقل ماروي من عمره يوم بعثته ﷺ وهو عشر سنين ، وأما على ماروي من أن عمره يوم البعثة كان خمس عشرة سنة فيكون قد سبقه بعشرين سنة فما يقال لهذا التلميذ الذي دخل المدرسة وابتدأ بالتعلم وهو ابن تسع وعشرين سنة ولم يكن (٢) معروفا بحدة الذهن وتوقد

(١) روى في كنز الاعمال على هامش مسند احمد ص ٣٩٤ ان عليا سئل عن كثرة ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كنت اذا سألته أنبأني واذا سكت ابتدأني

(٢) روى المحدث الجليل الموثق عند اخواننا وهو محمد بن سعد في الطبقات جزء ٣ صفحة ٢٧٣ باسناده عن أبي هريرة قال قدمت على عمر رضي الله عنه من عند ابي موسى بثمانمائة الف درهم فقال لي بما قدمت ? قلت بثمانمائة الف درهم فقال لي ألم أقل لك انك يمان أحمق انك قدمت بثمانين الفا . فقلت يا أمير المؤمنين انما قدمت =

القريحة ، ثم صحب تلميذاً شاباً قد تعلم قبله بخمس عشرة سنة ودواما يتعلمان مدة حياة معلمهما ، فهل يجوز في أحكام العقول عند اهل الفضل والانصاف أن يلحق الكهل بذلك الشاب ويفوقه بالعلم والمعرفة خصوصا إذا كان الشاب أقوى فطنة وأكثر ملازمة وانقطاعا إلى العلم ؟ كلا ثم كلا

وهذا لعمري من البديهيات الاولية ، واعلم رعاك الله أيها الاخ المنصف اننا هنا لانعتمد في تفضيل علي عليه السلام على كافة الصحابة رضي الله عنهم إلا على أمثال هذه البراهين القاطعة والامور المحسوسة التي سجلها التاريخ وأوضحها البحث والتنقيب والتدبر . اما الاحاديث التي وردت في فضله عليه السلام فانما نذكرها تأييداً واستظهاراً قبالة الخصم ، وهذه طريقتنا في الاصحاب رضوان الله عليهم لانعتمد في فضلهم وصلاحهم على ماروي فيهم حتى نرى مادون لهم في التاريخ من الاعمال ، فان كان ثمة عمل يؤيد ماروي فيهم آمنا وصدقنا ، والا اتهمنا الراوي ولم نؤمن بحديثه

ولسنا بحمد الله ممن يبخس الناس أشياءهم ، بل نعطي كل ذي حق حقه وننعت المرء بما هو فيه ، ان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وجهة كان يؤمها ، وغاية كان يسعى اليها هي من أشرف الغايات وأعلى المقاصد

= بثمانمائة الف درهم فجعل يعجب ويكررها فقال ويحك وكم ثمانمائة الف درهم ؟ فعددت مائة الف ومائة الف حتى عددت ثمانية

وروى أيضا انه قرأ قوله تعالى (وفاكهة وأبا) فقال ما الاب هو التكلف فما عليك أن لاتدري ما الاب . وروى احمد في مسنده ان عمر رضي الله عنه لم يعرف حكم الشك في الصلاة صفحة ١٩٠

وروي فيه أيضا انه امر برجم مجنونة زنت فانتزعها منه علي عليه السلام وأخبر عمر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن الصبي حتى يكبر وعن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يعقل » فرجع إلى قوله وروى ابو الفرج في الجزء الثاني من كتابه الاغاني صفحة ٥٣ ان الزبرقان ابن بدر شكا الى عمر رضي الله عنه الحطيئة الشاعر حين هجاه . فقال ماقال لك فانشده

دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

فقال ما أراه هجاء . فقال بل هجاني ياأمير المؤمنين فسأل حسان فقال بل سلح عليه

ألا وهي اعزاز الاسلام واظهار أبهته وعظمته وتفخيم سلطانه ، فمن ذلك يوم أسلم قال لايعبد الله بعد اليوم سراً فكان المسلمون بعدها يصلون ظاهرين

ومنها انه أشار بأن يتخذ لرسول الله ﷺ مكاناً يمتاز به عن أصحابه ليعرفه الغريب والوافد ولا يحتاج إلى أن يسأل عنه فان في السؤال عن العظيم مالا يخفى

ومنها انه أشار بأن تحجب نساؤه ﷺ ليكون لها الميزة عن سائر النساء وقد قال لبعض نساء رسول الله ﷺ وقد رأى شخصها في ملأ من الناس لو اطمت فيكن مارأتكن عين

ومنها انه أشار بقتل الاسرى يوم بدر حتى لاتقوم لقريش بعدها قائمة فان الاسرى كانوا هم الرؤساء والقادة ، وكان يسأل رسول الله ﷺ أن يأذن له بقتل كل من يداهن في دين الله ، وكان شديد الحرص على قتل ابي سفيان لما رآه من شدة كيده للاسلام ، وكان يوم الحديبية شديد الانكار للصلح قال يارسول الله ألسنا بالمؤمنين ؟ فقال نعم فقال أليسوا بالمشركين ؟ فقال نعم فقال فكيف نعطي الدنية من ديننا ؟ حتى سكن أبو بكر من هيجانه فقال له والله انه لرسول الله ، فقال عمر وأنا أعلم والله انه لرسول الله، فقال له اذن فالزم غرزه

وهذه الاعمال مانشأت إلا عن نية صالحة وحرص شديد على اعزاز الاسلام وتشييد سلطانه ، ولو أردنا ذكر الاعمال التي قام بها ايام خلافة ابي بكر رضي الله عنه وايام خلافته التي أعزت الاسلام وارست قواعده ونشرت على البسيطة اعلامه ، وطبقتها بسلطانه، لضاقت عنها بطون الصحف واستغرقت زمنا طويلا فجزاه الله عن الاسلام وأهله خيرا صاحب الكلمات

النبطية (سوريا) عبدالحسين نورالدين الحسيني

[المنار] يؤخذ من هذه الرسالة الفصيحة الصريحة المجردة من لباس الرياء والتقية ان كاتبها يعتقد ما يأتي

(١) ان توحيد كلمة المسلمين واتفاقهم على الدفاع عن دينهم المشترك وعن أنفسهم وعلى حقوقهم السياسية والوطنية وغيرها يتوقف على زوال الخلاف المذهبي بين أهل السنة والشيعة، برجوع أحدهما الى مذهب الآخر الذي هو سبيل المؤمنين

عنده ، ومن لم يتبعه يكون غير متبع لسبيل المؤمنين . وأنه يجب على الآخر حينئذ عداوته في الدين ، وعدم الاتفاق معه على شيء ، ولو كان دفع عدو لهما كليهما ، بل ان شأنهما أن يعين كل منهما عدو الآخر عليه ، وكذا عدوهما كليهما ، أي ان مظاهرة عدو الدين والوطن والاتفاق معه أولى من مظاهرة عدو المذهب والاتفاق معه

(٢) ان الوسيلة الموصلة الى هذه هي سعي علماء الدين من الفريقين الى ازالة أسباب هذا الخلاف بالبرهان ، واصغاء كل منهما الى حجة الآخر في المناظرة وتحكيم أهل الفضل والانصاف بينهما فيما لا يتناصفان فيه

فأنا قبل الدخول في هذه المناظرة أقول ان اهل السنة ينكرون توقف الاتفاق على ما ذكر . وان العقلاء من جميع الامم ينكرون إفضاء المناظرات الدينية والمذهبية إلى رجوع اهل المذهب الذي يغلب عالمه في المناظرة الى مذهب الغالب كما يعلم بالاختبار في جميع العالم . ويؤيده فيما ان المناظرات بين الفريقين قد كثرت وتعددت في الاجيال الماضية وفي جيلنا مرارا لا يحصيها الا الله تعالى ، وقد ألف فيها كتب كثيرة من بسيط ووسيط ووجيز فلم تزد السواد الاعظم من الفريقين الا تعصبا للمذهب وصدودا عن مذهب الآخر . فكانت مفرقة لا جامعة ، ومبعدة لا مقربة ، وانما تفيد المناظرات أفرادا من مستقلي الفكر في طلب الحق ، غير المقيدي الفكر والوجدان بالاذعان لمذهب معين لا ينظر الى غيره الا بعين المداوة والبحث عما يفنده به ولو بالتأويل والتحريف ، وترجيح مذهبه عليه بمثل ذلك ، وبالاقيسة المؤلفة من الخطابيات والشعريات المبنية على الظني وما دون الظني من الروايات ، ووصفها بالبراهين اليقينات ، كما يراه قارىء هذه الرسالة في تصوير مناظرنا لتلقي علي عليه السلام للعلم من النبي ﷺ قبل النبوة وبعدها بأنه كان كتلقي تلاميذ المدارس الفنية الدنيوية للفنون فيها بحفظ المتون والقواعد الرياضية من حساب وهندسة ومساحة وفلك والفوية والعقلية والتشريعية ثم حكمه بأن السابق الى هذا التلقي يجب بحكم العقل أن لا يدرك شأوه اللاحق .

وفي هذا البحث من الأغلاط الدينية والتاريخية والعقلية والمنطقية والطبيعية ما لا يمكن بسطه وإيضاحه إلا في صفحات كثيرة أو رسالة مستقلة ، وسأشير الى المهم منه بعد

وانما غرضي الآن أن أحتج على صحة ما اشترطه على السيد المقترح المناظرة من وجوب الاقتصار في المناظرة على مسائل الخلاف الاساسية . وهي ثلاثة (١) موالاة أهل البيت النبوي وأهل السنة يوجبون هذه الموالاة بما يفهمونه ويرونه موافقا لهدي الشريعة (٢) موالاة أصحاب الرسول وأهل السنة يوجبونه على غير الوجه الذي ذكره كما سنبينه (٣) الخلافة . فيجب تحرير موضع الخلاف فيها أولا ، وتحديد طريقة الاستدلال عليها ثانيا ، والاتفاق على طريقة التحكيم في الخلاف والمحكمين ثالثا

بيد أنني احب ان أعلم قبل هذا هل يوافق كبار علماء الشيعة في سورية والعراق والهند وايران مناظري الفاضل على قوله انه لا يمكن الاتفاق بين اهل السنة والشيعة على شيء من المصالح الاسلامية السياسية والوطنية والادبية المشتركة المنفعة الا اذا اتفقا قبل ذلك على رجوع احدهما الى مذهب الآخر فيما اختلفا فيه من المسائل الاساسية ، والا كان دين كل منهما يقضي عليه بمعاداة الآخر على الوجه الذي قاله هذا العلامة الشجاع منهم والتعليل الذي علله به ؟

ان هذا رأي لم نسمعه من غيره ولكن سيرة الشيعة وتاريخها قد يؤيده ويدل عليه ، وانه لا صرح رجل عرفته فيهم ، ولذلك كبرت منزلته في نفسي على ما اعتقد من خطئه واغلاطه وان ما قرأته من كتابه الكلمة الاولى يدل على أنه رجل شعور ووجدان ، لا رجل تجربة وبرهان ، ولولا ذلك لم يعتقد أو كد الاعان ، انه لولا علي بن ابي طالب عليه السلام ، لقتل رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام ، ولما بقي في الارض إسلام ، ثم انه يسمي في رسالته هذه كتاب نهج البلاغة « بالقرآن والفرقان » ويقول ما يراه القراء في شرط الاتفاق وزوال الشنآن

فأقترح على مناظري العلامة وعلى زميلي الاستاذ صاحب مجلة العرفان ان يأخذا لي تصريحا من علماء الشيعة المشهورين في جبل عامل وغيره من سورية والعراق في رسالة السيد عبد الحسين ولا سيما شرطه هذا ، بل أكتفي برأي علماء جبل عامل وحدهم في ذلك ونشر ذلك عنهم في مجلتي المنار والعرفان . وسأرد في الجزء الآتي على هذه الرسالة على كل حال

مصابنا بالوالدة رحمها الله تعالى

بعد ظهر اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر قد احتسبنا عند الله تعالى والدتنا ومربيتنا وجرثومة اسرتنا السيدة البرة الرحيمة التقية النقية الشريفة (فاطمة أم رشيد) الحسنية الأب والأم في منتصف العشر التاسع من عمرها، ففقدنا بفقدها أماً يندر وجود مثلها في الامهات ، والامهات أفضل ما في هذه الكائنات ، حبا ورحمة وإخلاصا ونصحا وإيثاراً للاولاد على النفس مهما تكن صفاتهم وأحوالهم (إلا من أفسدت البيئة فطرتها، وذهب الجهل ومعاشرة الفاسقين او الخرافيين بدينها) فلا حب فوق حب الأم إلا حب الله تعالى لعباده المقربين ، ولا رحمة تعلو رحمتها إلا رحمته عز وجل المحسنين ، بل رحمتها أكبر شجنة من رحمته الواسعة عز وجل ، فقد فقدنا من كانت عندنا ومما وقينا أفضل المخلوقات ، من لا يفضلها شيء ، ولا يغني عنها شيء ، الا رحمة الله تعالى وصلواته على الصابرين ، وبره وإحسانه للبارين المحسنين ، ونرجو أن تكون منهم في مماتها كما كانت في حياتها ، وصبرنا واحتسابنا لها بعد وفاتها ، ونسأله تعالى أن يجزيها عنا أفضل ما جزى أما لعباده رؤما لأولادها ، رؤفا بهم ، عطوفا عليهم ، محسنة لتربيتهم ، وأمة من امائه ، مؤمنة به ، موحدة له ، مخلصة في عبادته ، وأن يتغمدها برحمته التي يختص بها عباده المقربين ، ويرفعها الى منازل الكرامة في عليين ،

كانت رحمها الله تعالى صحيحة البنية سليمة من الامراض ، إلا أنه عرض لها ألم الرثية (الروماتزم) في ركبتيها بعد مجيئها الى مصر منذ بضع عشرة سنة ، فعالجها الطبيب التركي الشهير شرف الدين بك رحمه الله تعالى بصبغة اليود دهانا وشربا ، فزال المرض وحجت في موسم سنة ١٣٣٤ وانا في خدمتها فلم يزعجها شيء من ركوب الشقادف والنزول منها ، واحتملت ما ارهقنا من نوء البحر في عودتنا من الطور الى السويس في باخرة صغيرة بسهولة

وصامت معنا رمضان الماضي بدون تعب ولا ضعف ، وكانت تفطر وتتسحر من طعامنا القوي التغذية فلا تشكو منه ثقلا ولا طخىً ولا سوء هضم ،

وتصلي معنا في جماعة الاسرة ، ثم تغيرت صحتها عقب عيد الفطر واشتكت واختلف على معالجتها عدة من نطس الاطباء ، أشهرهم سليمان بك عزمي فخف المرض ولكنها ضعفت بالتدريج واشتد تعبها في آخر ليلة من حياتها الشريفة الراضية المرضية ، وقد صلت الفجر والظهر يوم وفاتها في وقتهما بالايماء ، ولم تقبل أن تؤخر الظهر لتجمعها مع العصر كما أفتيتها في مثل هذه الحال ، وفاضت روحها في الساعة الثانية بعد الظهر

وكانت التي تتولى خدمتها الخاصة وتمرضها في كل أيام مرضها كنتها ام أولادنا حتى انها كانت تسهر بجانب سريرها مادامت تعبة محتاجة الى شيء من الخدمة وتنام بجانبه عند الحاجة ، وقد قالت لأم محمد شفيع غير مرة ان كل خدمة تؤدينها للوالدة فكأنك تؤدينها لشخصي ، لأنك نائبة فيها عني ، فانني أنا الخليق بأن اقوم بذلك بكل ارتياح مهما يكن نوعه ، فلا عذر لك في شيء من التقصير الا اذا كنت أنا مقصرا معك في شيء ما — وهي بحمد الله واتباعنا لهداية دينه القويم لا تشكو منها شيئا ما — ومن فضل الله علينا جميعا انه لم أر منها أدنى تقصير فأرشدها الى تلافيه ، وقد قالت لها اني لا أشكرك لخدمة الوالدة لجنس الخدمة ونوعها ، فان هذا من التكافل المشترك في حياتنا المنزلية ، وانما أشكر لك من عماق قلبي أنني لم أرك في شيء من هذه الخدمة متبرمة ولا ضجرة ،

فهذا الارتياح النفسي لهذا العمل الشريف من الفضائل النفسية لا تكاد توجد في الكنائن ، بل قلما تتحلى بها ابنة في تمريض امها في هذا العصر الذي كثر فيه العقوق ، وهضم الحقوق . فأقسمت إنها تشعر في خدمتها بارتياح من تخدم ابنة لها لا أماً ، ولقد كانت المرحومة خيرا لها من امها ، وأشد تحريا لسرورها من بنتها فلو كانت أمها معنا لما استطاعت أن تؤلف بيننا مثلها . فانا أسجل هذا في المنار ليكون مثلا صالحا وأسوة حسنة للمؤمنين ، وحجة على الملاحدة والمارقين والفاسقين ، الذين يجهلون ان سعادة الحياة المنزلية (العائلية) من زوجية وأمومة وأبوة وأولاد لا تأوي إلا الى بيوت المعتصمين بهداية الدين القويم ، فاليها تأوي وفيها تثوى وتقيم ، ولئن طاف منها طائف ببيت من بيوت الملاحدة والفاسقين أو زاره ، فانما تلم به إلماما ولا تلبث أن تهجره عند حدوث الحوادث الشهوانية ،

وانقياب الكوارث البشرية فآداب الاسلام ارقى من آداب الافرنج وأضمن للسعادة وان جهل ذلك المتفرنجون

أبقنا موت الوالدة التي كنا نتبرك بوجودها ، ونهتدي بإرشادها ، ونستنزل رحمة الله ومثوبته ببرنا لها ودعائها لنا ، ففاضت الاعين دموعا، ورددت الصدور زفيرا ونشيجا ، وكررت الالسنة حوقلة واسترجاعا، واضطربت الافئدة خفقانا ووجيبا ، وان العين لتدمع ، وان القلب ليحزن، ولا نقول الا ما يرضي ربنا ، ولا نعمل إلا بما شرعه لنا

لم نعلن نعيها في الجرائد ولا رقاع البريد ولا أسلاك التليفون ، وانما أعلمنا حفيدها السيد محيي الدين رضا بالخبر ابعداره عن دار المنار، وجهزناها على ملة الاسلام، وسنة رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وصلبت عليها في رحبة الدار مع من حضر ، وشيعناها الى مقبرة جديدة في زين العابدين، فواريناشمسها عندما توارت شمس الدنيا بالحجاب، تغمدها الله تعالى بالرحمة والرضوان

لم نعقد لها مأتما ولم نتبع شيئا من عاداتنا حدادا عليها . وقد وصل الخبر الى بعض جرائد الصباح التي تطبع ليلا فنشرته، ثم نشرته بعض جرائد المساء في اليوم التالي ، فأقبل كثير من أصدقائنا المقيمين في القاهرة لتعزيتنا في الدار نهارا وليلا ، وأرسل كثيرون منهم برقيات التعزية ورسائلها من الاسكندرية وغيرها من مدن القطر المصري ومصطافه ، وكان في مقدمة المعزين بأنفسهم وببرقياتهم اخواننا العلماء وأخص بالذكر منهم أصحاب الفضيلة شيخ الازهر الحالي الاستاذ الشيخ محمد الاحمدي الظواهري، وشيخه السابق الاستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي، ومفتي الديار المصرية الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم ، وبعض رؤساء الكليات والمدرسين في الازهر — وبعض الوزراء وأولهم صاحب الدولة رئيسهم اسماعيل صدقي باشا — والزعماء وكبار رجال الاحزاب وفي طليعتهم صاحب الدولة مصطفى باشا النحاس رئيس الوفد المصري ، ومحمد فتح الله باشا أحد كبراء الوفد ووزراء حكومته السابقة ، وحسن باشا عبد الرازق وإخوته من اركان الحزب الدستوري . ثم جاءتنا كتب التعزية من أصدقائنا المحبين المنبثين في الاقطار حتى

لندن وباريس ورومية وسورية والحجاز ، فنشكر لكل معز من قريب وبعيد فضله ولطفه ، وندعو الله أن يلطف بنا وبهم ، ويقينا وإياهم السوء ، ويجعلنا من الصابرين على بلائه ، الراضين بقضائه ، الشاكرين لنعمائه

كانت الوالدة أحسن الله تعالى اليها من أسلم النساء فطرة ، وأزكاهن نفساً ، وأطيبهن قلباً ، كانت خير الازواج لزوجها ، وخير الامهات لأولادها ، وكان حظي من حبها وعطفها أكبر من حظوظ اخوتي وأخواتي ، ولكن فيما لم يحرك غيرة أحد منهم ولا سخطه ، حتى كان والدي رحمه الله تعالى يلقبني «حبيب امه» ولا أذكر انني عصيت لها أمراً في صغري ولا كبري

أذكر انني رأيت أترابي من الاطفال مرة قد خرجوا في سماء (مطر) حفاة يمشون في الوحل رافعي أثوابهم إلى ركبهم ، فاشتهيت أن أقلدهم وأنا ابن بضع سنين ، فجئت الدار فاستأذنتها في ان أخرج حافياً والحق بهم ، فلم تأذن لي ، فوقفت في عتبة الدار حافياً ومددت إحدى رجلي إلى خارجها وقلت «احطها» ، قالت لا تحطها ، قلت «احطها» قالت «لا تحطها» فتكررت ذلك مراراً — فلما لم تأذن لي رجعت . وما زلت أذكر هذا لها وتذكره لي ، فلم انسه ، وما أرى نفسي من نسيان غيره

ولا أذكر انها ضربتني في صغري إلا مرة واحدة : تمهلت من سخونة ماء الحمام وحاولت التفصي والهرب ، فضربتني بالطاس على ظهري ، وما زلت أذكرها بها مازحاً ، وتعتذر لي عنها تلطفاً !! ثم كانت أشد عناية من والدي بطلبي للعلم والاهتمام به والارتياح الى هجرتي الى مصر ، إذ علمت مالي فيها من النية الصالحة ، والرجاء في التكمل بالعلم وخدمة الملة والامة

وكانت دقيقة الفهم ، رقيقة الشعور والوجدان ، تخشع لآيات الزجر والوعيد من القرآن خشوع العارفين المتدبرين ، وإذا أنشدتها شيئاً من غزل الشعر الغرامي قالت : هذا فتنة لا ينبغي اشتغال الشبان والشواب به ، وقد قرأت لها قصيدة احمد شوقي في تهنئة السلطان حسين كامل « الملك فيكم آل اسماعيلا » فلم أتجاوز حتى قالت لي : هذه مرثية لا تهنئة ، فعجبت لهذه الفطنة ، وسبقها إياي الى هذه ره ، وقرأت لها قصيدته في تهنئة والدة الخديو بعودتها من الاستانة التي مطلعها :

اكشفي الستر وحيي بالجبين — وأرينا فلق الصبح المبين

فانتقدت هذا المطلع واستهجنته جداً في كلا مصراعيه: فأما الاول فلأن الستر يستعمل غالباً في إخفاء ما يقبح إظهاره، وكشفه يستعمل في الفضيحة، فيقال: كشف الله ستر فلان، وهتكت فلانة سترها، وأما الثاني فلا يخفى وجهه، ولا يحسن كشفه

وأذكر أني سمعت وأنا صغير مغنياً في قريتنا القلمون يقول بيتاً من اغنية عامية مضمونه انه يدعو الله أن يغيب القمر ليأخذ البوسه (القبلة) ويرى قلمة حلب على اي شيء هي مبنية . فحفظتها فقلتها أمامها فغضبت وقالت لي « اسكت هذا كلام عيب اياك أن تقوله» وانني وايم الحق لم أفهم مغزى هذا الانكار الشديد الا بعد ان صرت رجلا كبيراً

وكانت على نزاهتها وأدبها في القول والفعل ذات دعابة وفكاهة، وتنادر في الكلام طبعاً بلا تكلف، وكانت تتوخى ان لا يستثقل احد منها قولا ولا خدمة، فقلما تطلب من أولادها او أحفادها [illegible] تمرض وتكون في الغالبة ولا تكلف احداً ما تستطيع هي عمله [illegible] على تقصير ولكنها قد ترفع صوتها عند الغضب وقد ورثت ذلك منها وهو منتقد وهو طبع كان يكرهه كل منا

وكانت مقتصدة شديدة الحرص على كل ما في الدار لا يهون عليها ان يضيع شيء منه، على حبها للضيافة واعتيادها اكرام الضيوف منذ صارت ربة بيت، وتحب ان يبذل كل ما يستطاع من إكرام الضيوف وبر الاخوان، فاذا اشترنا بشيء من الالوان لم تجده لائقا لقلته اقترحت الزيادة عليه، وما دعوت الاصدقاء الى الطعام الا ذكرتني ببعض من لم اذكره لها منهم، حتى كانت تأمرني بدعوة نسيم افندي صيبعة للافطار معنا في رمضان مع الصائمين الذين ندعوهم ولا سيما السوريين منهم، فأقول لها مازحا: هو نصراني لا يصوم، فتقول لكنه صديقك وابن بلدنا، وذوقه ذوقنا، ولا بد أن يترك الغداء بعد الظهر، أو يخففه ليقبل الاكل معكم بعد المغرب، وأنا لم أذكر لها كلمة « نصراني » الا لاجل الصيام، فقد كان من المألوف عندها بدارنا والا فهي معتادة في بلدنا على ضيافة النصارى وغيرهم، بل كان بعض أصدقاء والدي منهم يقيم عندنا أياما في رمضان فيفطر ويتسحر معنا

وقد ذكرتني جريدة حضرموت (التي تصدر بسنغافورة) بمكرمة لها كنت ناسياً لها ، وهي انه لما جاء مصر صديقي الجليل المرحوم السيد محمد بن عقيل قبل الحرب الكبرى ذكرت لها ذلك عند ما علمت به ليلا ، فأمرتني ان اذهب من ساعتي تلك الى الفندق الذي نزل فيه وأجيء به الى الدار، وقالت انه لا يليق بك وهو صديقك القديم وقد صار لك دار وأهل ان ترضى بنزوله في فنادق المسافرين — وكانت لا تعلم ان هذا معتاد في الامصار الكبيرة — فلم يسعني الا امتثال أمرها

وكانت صبوراً شكوراً ، مات اربعة من بنيها وأربع من بناتها في حياتها فبكتهم البكاء الطبعي الشرعي: دموع تتحادر من العينين، ونشيج يتردد في الصدر، بلا نوح ولا ندب، ولا تغيير شيء من العادات في اللباس والاكل والشرب، ولا غير ذلك مما يسخط الرب . وأما الشكر فكان أكمل مظاهره منها رضاها من المرحوم الوالد وإطراؤه في كل أعماله على ما كان من شدته في معاملتها ومعاملتنا احيانا، فلم يكن في أسرتنا مثله في غضبه وشدته عفا الله عنه وما زالت تترحم عليه وتثني عليه وتدعو له طول حياتها

وقد ضارها بزوج اخرى من بنات عمومتها ولدت أخاً لي (ولم يجمع أحد من أسرتنا بين زوجين غيره إلا ابن عمه) فلم يشك هو ولا غيره منها قولا ولا فعلا من غيرة الضرائر على ما كان أهل ضرتها يعملون لاغضابها وإثارة غيرتها ولكنه رحمه الله تعالى ما استطاع أن يطيل عشرة الاخرى فسرحها سراحا جميلا

ومن أغرب آدابها انها كانت تعد لاولادها منة عليها بأقل خدمة يؤدونها مما أوجبه الله عليهم ويعذبهم على تركه ، حتى كان يثقل علي هذا منها أحيانا ، وقد قلت لها مرة : لماذا تتحامين أو تستثقلين أمر اي كان من كبيرنا وصغيرنا بما تريدين منه وانت سيدة الجميع وصاحبة الفضل على الجميع؟ فقالت بل أنت صاحب الفضل على الجميع . فما آلمتني بكلمة أشد على طبعي من هذه الكلمة ، فقلت لها بل أنا لولا توحيد الله تعالى لما كنت إلا عبداً لك. وانصرفت موجماً من هذا الشعور الغريب

واغرب منه انها كانت تسترقيني اذا وجعت فارقيها ، والرقية مشروعة. ولم تكن من النساء الخرافيات وقد ذهبت مرة مع بنتيها لرؤية جامع عمرو فاحاط بهن سدنة القبور فقلن لهم انما نحن متفرجات لا زائرات فانصرفوا .

وأعد من فضل الله تعالى علي انني ورثت منها سلامة الفطرة وطيب السريرة فلم أحمل في قلبي حقداً على مسيء، ولا حسداً لذي نعمة ـ وكذا الاستعداد لذوق اللغة وحسن الفهم، وغير ذلك من اخلاقها وخلقها . كما ورثت من والدي (اكرم الله مثواهما) عزة النفس والشجاعة والنجدة، وانما اذكر هذا تنويها بفضل الوالدين وتحدثا بنعم الله عز وجل . وأعظمها العلم الصحيح بالاسلام والعمل به ثم وراثة النسب الشريف

كنت أتمنى لو تعيش الوالدة مائة سنة او اكثر متمتعة بالصحة ، وسلامة العقل والجسد كما كانت الى آخر رمضان الماضي ، نتمتع بخدمتها وارضاء الله برضائها ، ونقتدي بأخلاقها وآدابها ، ونرجو زيادة نعم الله علينا بشكرها له ودعائها لنا .

وكنت على حبي لها اخشى أن تشتد عليها الأمراض فأراها معذبة أو شاكية وجعة، وكانت اصبر على ألم النفس منها على ألم الجسد لأنها لم تتعود هذا . وقد شقت عليها الحمية في هذه الأشهر التي ضعفت فيها لما اعتادته من الترف . وكانت تتوقع ان يزول كل [illegible] وتعود الى [illegible] ، وتتساءل متى يكون هذا ؟ فأذكرها بتجاوز الثمانين [illegible] من بطء [illegible]

وكنت على تمني أن يطول عمرها أخشى أن اموت قبلها ، لانني اعلم ان رزأها بي يكون اكبر المصائب عليها ، اذ كنت قرة عينها ، والعزاء لها والسلوى عن جميع مصائبها وقد كان يشق علي ان أراها متعبة فلا استطيع طول المكث معها ، وأحمد الله تعالى ان حفظها في مرضها عقلا وفهما وجسما وطهارة حسية ومعنوية (كما يليق بمبالغة الشافعية في الطهارة) حتى كانت الى نهاية أجلها حديدة البصر ، تنظم الخيوط الدقيقة في أخرات الابر ولكن اجل الله اذا جاء لا يؤخر ، ولقد عاشت طيبة وماتت طيبة فنسأله تعالى ان يجمعنا بها في دار كرامته ويجعل خير اعمالنا خواتيمها وخير ايامنا يوم لقائه (ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)

(كلمة في مقالات إلحاد في الدين)

قد امتنعت جريدة الاهرام من نشر المقالة الاخيرة من هذه المقالات المنشورة في هذا الجزء ولكنها نشرت للشيخ محمد ابى زيد مقالة استفرغ فيها من قذره في شتم استاذه المحسن اليه في العلم والدين والدنيا ما لم يكن يظن فيه على ما علم من فساد دينه وعقله . وكفى بهذا عبرة

﴿ نعي السيد الجليل ، السيد محمد بن عقيل تغمده الله برحمته ﴾

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه

حضرة العلامة الجليل ، الاستاذ العزيز السيد محمد رشيد رضا ، حفظه الله تعالى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فننعي اليكم بمزيد الشجن ، وعظيم الحزن ، والدنا الجليل ، العلامة فقيد العلم والاسلام ، مولانا البركة السيد محمد بن عقيل بن يحيى ، توفى رحمه الله في الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء الموافق ١٣ ربيع الاول على اثر حمى لزمته نيفا و ٣ أسابيع

وقبل التحاقه بالرفيق الاعلى بيومين أكثر من الصلاة مع ضعفه التناهي حتى خارت قواه ، ولفظ النفس الاخير ، ولقد عظم المصاب علينا بموته ، وانفطرت لهوله أفئدتنا حزناً وشجنا رحمه الله ، ولكن لا نقول إلا مايرضي الرب سبحانه وتعالى إنا لله وإنا اليه راجعون . فعظم الله أجورنا جميعاً وعزاء الاسلام وأهله ، والعلم وطلابه [illegible] الكثير من حزننا مشاطرة الحكومة المتوكلية اليمانية في مصابنا ، فقد شيعت الفقيد مئات الجيوش منكسة أسلحتها كما شيعه رجال الدولة والاهلون عن بكرة أبيهم ، فنشكرهم اليكم جد الشكر ، ونسأل الله أن يتغشى راحلنا الكريم بالمغفرة والرضوان ، وأن لا يريكم مكروهاً قط والسلام

الحديدة ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٥٠ الحزين الباكي

عبد الله بن يحيى علي بن محمد بن عقيل

[المنار] جاءنا هذا النعي لصديقنا الكريم ، وولينا الحميم ، في فترة احتجاب المنار ، وحبسنا النفس على إتمام تاريخ الاستاذ الامام ، ولما تم التاريخ واستأنفنا تحرير المنار شرعنا في كتابة مانرى فيه الفائدة والعبرة من مناقبه وسيرته وكتابة مثل ذلك من سيرة سيدتنا الوالدة رحمهما الله تعالى ، فضاق هذا الجزء — وكان قد طبع اكثره — عن سيرتهما ، فقدمنا سيرة من حقها علينا أعظم ، وأخرنا الآخر إلى الجزء التالي . وانني لأتذكر الحكم بالرفيق الاعلى له ولكل أحد بعد خاتم النبيين وسيد ولد آدم وهو انما كان يدعو الله بها لنفسه عند وفاته ﷺ وأسأل الله تعالى لفقيدنا الكريم الرحمة ولآله وأصدقائه حسن العزاء والصبر